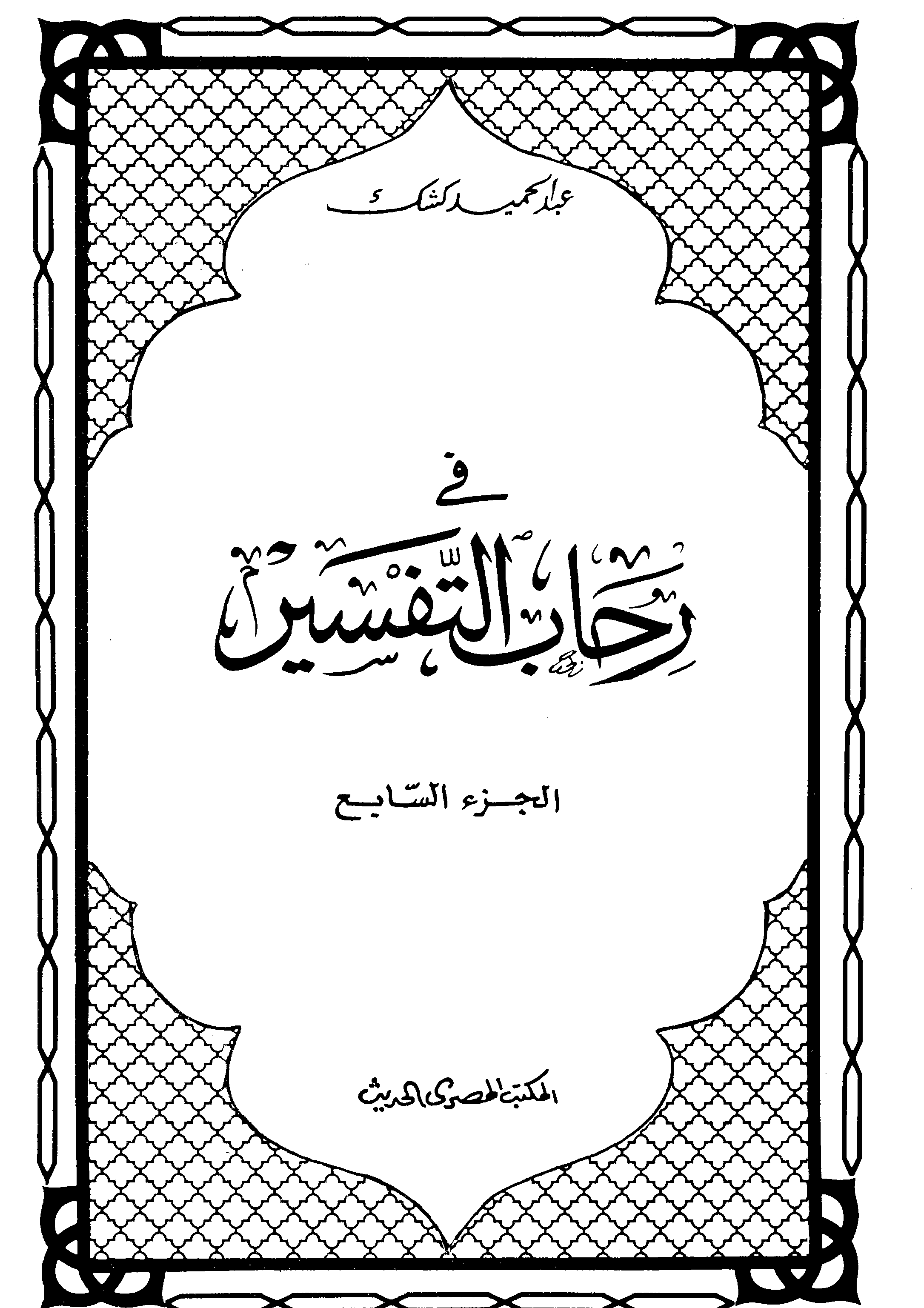

عبد الحميد كشك
في رحاب التفسير
الجزء السابع
المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

حقائق يقررها القرآن الكريم

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦) ﴾

المفردات : ﴿ **عداوة** ﴾ العداوة والمحبة صفتان من صفات النفس يظهر أثرهما فى القول والعمل . ﴿ **قسيسين** ﴾ : واحد قس ، وقسيس ، وهو رئيس من رؤساء النصارى والأصل فيه أن يكون عالما بدينهم وكتبهم . ﴿ **رهبانا** ﴾ : واحده راهب وهو العابد المنقطع للعبادة . ﴿ **تفيض من الدمع** ﴾ : تمتلىء دمعا حتى يتدفق من جوانبها لكثرته . ﴿ **فأثابهم** ﴾ : جازاهم .

قال سعيد بن جبير والسدى وغيرهما : نزلت فى وفد بعثهم النجاشى إلى النبى ﷺ ليسمعوا كلامه ويروا صفاته ، فلما رأوه وقرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ثم رجعوا إلى النجاشى فأخبروه .

وقال قتادة : هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم ، فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلعثموا . واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت فى صفة أقوام بهذه المثابة سواء كانوا من الحبشة أو غيرها .

قوله تعالى ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا** ﴾ ، وما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهتة للحق ، وغمط للناس وتنقص بحملة العلم ، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة ، وسموه وسحروه ، وألبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (ما خلا يهودى بمسلم قط إلا هم بقتله) .

وقوله تعالى : ﴿ **ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى** ﴾ أى الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله ، فيهم مودة للإسلام وأهله فى الجملة ، وما ذاك إلا لما فى قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ﴾[1] وفى كتابهم : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . ﴿ **ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون** ﴾ .. أى يوجد فيهم القسيسون وهم خطباؤهم وعلماؤهم ، واحدهم قسيس وقس أيضا وقد يجمع على قسوس والرهبان جمع راهب وهو العابد مشتق من الرهبة ، وهى الخوف ، كراكب وركبان وفارس وفرسان ، قوله تعالى : ﴿ **وأنهم لا يستكبرون** ﴾ أى أن من صفاتهم التواضع ، والكبر والاستكبار هو بطر الحق وغمط الناس . قال تعالى : ﴿ **فلبئس مثوى المتكبرين** ﴾[2] وقال ﷺ : (لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر)[3] . لذلك وصفهم الله تعالى بعد ذلك بقوله : ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول** ﴾ أى من القرآن ﴿ **ترى أعينهم تفيض من الدمع** ﴾ حتى يتدفق من كل جانب فيضانا ناشئا مما عرفوا من الحق الذى أنزل على محمد ﷺ إذ هو مصدق لما معهم من الكتاب ومطابق لما وصف عندهم ، ولم يمنعهم عن ذلك عتو وعناد متأصل فيهم ، هذا حالهم ، أما مقالهم فيقولون : ربنا آمنا بك وبرسلك ، خصوصاً محمد ﷺ ، فاكتبنا مع الشاهدين الذين يشهدون يوم القيامة للأنبياء والرسل وهم أمة محمد ﷺ ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾[4] أى مانع يمنعنا من الإيمان بالله الذى لا إله إلا هو ؟ ويصدنا عن اتباع ما جاءنا من الحق على لسان ذلك الرسول المبشر به فى كتابنا إذ هو روح الحق وإنا لنطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الذين صلحت نفوسهم وطهرت أرواحهم بالعقائد الصحيحة والمثل العليا وهم أتباع هذا النبى الكريم .

والمعنى : لا مانع من الإيمان بعد أن ظهرت الحجة ووضح الطريق ، ونحن نطمع فى أن نكون فى عداد الأبرار والأخيار من أصحاب محمد ﷺ فأثابهم الله وجازاهم بما قالوا عن عقيدة راسخة ونفس مطمئنة راضية وآتاهم جنات تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ، هؤلاء المسيحيون الأحرار الذين نظروا فى تعالم المسيح الحقيقية فوقفوا على سرها ، وتكشفت لهم جنباتها ، ورزقوا فكراً حرا ، وعقلا رشيداً ، وروحاً طيبة ، بعيدة عن التعصب تدين بمبدأ

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الحديد . (٢) الآية ٢٩ من سورة النحل .

(٣) أخرجه البخارى فى الإيمان (١٥) وفى الرقاق (٣٥ ، ٥١) وفى الفتن (١٣) وفى التوحيد (٢٤ ، ٣٦) وأخرجه مسلم فى الإيمان (١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٨٥ ، ٢٣٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٢٦) وفى الفتن (٥٢ ، ١١٦) وأخرجه أبو داود فى اللباس (٢٦) والترمذى فى الفتن (١٧) وفى جهنم (١٠) وابن ماجه فى المقدمة (٩) وفى الزهد (١٦ ، ٣٧) والدارمى فى المقدمة (٨) والإمام أحمد فى (١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤٥١) وفى (٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢١٥) وفى (٣ ، ١٢ ، ١٧) وفى (٤ : ١٥١) وفى (٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩) .

(٤) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

« الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من أى وعاء خرجت »[١] .

أما السواد الأعظم من المسيحيين الذين غرقوا فى بحار التعصب ولم ينظروا ولم يفكروا وقالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، أو من عرفوا الحق، وأعرضوا عنه ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ فهؤلاء وهؤلاء يقول الله فيهم ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ الدالة على صدق نبينا «أولئك هم أصحاب الجحيم» الملازمون لها .

هلك المتنطعون

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

المفردات ﴿ **طيبات** ﴾ : ما تستلذه النفس ويميل إليه القلب . ﴿ **ولا تعتدوا** ﴾ : لا تتجاوزوا الحدود المرسومة لكم . ﴿ **طيبا** ﴾ : غير مستقذر حسًّا أو معنى . ﴿ **اتقوا الله** ﴾ : خافوه . ﴿ **أنتم به مؤمنون** ﴾ : أى مصدقون بواحديته .

جاء فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبى ﷺ عن عمله فى السر فقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : (ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ، لكنى أصوم وأفطر وأنام وأقوم وآكل اللحم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى)[٢] .

وعن ابن عباس : نزلت هذه الآية فى رهط من أصحاب النبى ﷺ قالوا : نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا ونسيح فى الأرض كما يفعل الرهبان ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك فقالوا : نعم ، فقال النبى ﷺ : (لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأنام وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتى فهو منى ومن لم يأخذ بسنتى فليس منى) .

وعن ابن عباس أيضا أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله إنى إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت للنساء ، وإنى حرّمت علىّ اللحم ، فنزلت : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم** ﴾ .

---

(١) أخرجه الترمذى فى العلم (١٩) ، وابن ماجه فى الزهد (١٥) .

(٢) أخرجه البخارى فى النكاح (١) . ومسلم فى النكاح (٥) . والنسائى فى النكاح (٤) والدارمى فى النكاح (٣) . والإمام أحمد فى (٢ : ١٥٨) وفى (٣ : ٢٤١ ، ٢٥٩ ، ٢٨٥) وفى (٥ : ٤٠٩) .

أحكام فقهية

ذهب الشافعى وغيره إلى أن من حرم مأكلا أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه ولا كفارة عليه أيضا ولقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم** ﴾ ، ولأن الذى حرم اللحم على نفسه كما فى الحديث المتقدم لم يأمره النبى ﷺ بكفارة ، وذهب آخرون منهم - الإمام أحمد بن حنبل - إلى أن من حرم مأكلاً أو مشرباً أو ملبساً أو شيئاً من الأشياء فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين كما إذا التزم تركه باليمين فكذلك يؤاخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه ، كما أفتى بذلك ابن عباس وكما فى قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم ﴾[1] ، ثم قال : ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾[2] ، وكذلك هاهنا لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين ، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين فى اقتضاء التكفير . والله أعلم .

أقوال أخرى

قال ابن جريج عن عكرمة أن عثمان بن مظعون وعلى بن أبى طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالما مولى أبى حذيفة فى أصحابه تبتلوا فجلسوا فى البيوت ، واعتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح ، وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بنى إسرائيل ، وهموا بالاختصاء ، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ .

يقول : لا تسيروا بغير سنة المسلمين ، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس ، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار ، وما هموا به من الاختصاء ، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال : (إن لأنفسكم حقا وإن لأعينكم حقا ، صوموا وأفطروا ، وصلوا وناموا ، فليس منا من ترك سنتنا ، فقالوا : اللهم أسلمنا واتبعنا ما أنزلت وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسلة ، ولها شاهد من الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين كما تقدم ذلك ولله الحمد والمنة . وقال أسباط عن السدى فى قوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ جلس يوماً فذكر الناس ، ثم قام ولم يزدهم على التخويف ، فقال ناس من أصحاب النبى ﷺ كانوا عشرة منهم : على بن أبى طالب ، وعثمان بن مظعون : ما حقنا إن لم نحدث عملا فإن النصارى قد حرموا على أنفسهم فنحن نحرم ، فحرم بعضهم أن يأكل اللحم والودك ، وأن يأكل بالنهار ، وحرم بعضهم النوم ، وحرم بعضهم النساء ، فكان عثمان بن مظعون ممن حرم النساء ، فكان لا يدنو من أهله ، ولا يدنون منه فأتت امرأته عائشة رضى الله عنها ، وكان يقال لها الحولاء ، فقالت لها عائشة ومن عندها من أزواج النبى ﷺ : ما بالك يا حولاء متغيرة اللون لا تمتشطين ولا تتطيبين ؟ فقالت : وكيف أمتشط وأتطيب وما وقع على زوجى وما رفع عنى ثوبا منذ كذا وكذا ؟

(١) الآية ١ من سورة التحريم . (٢) الآية ٢ من سورة التحريم .

قال : فجعلن يضحكن من كلامها ، فدخل رسول الله ﷺ وهن يضحكن فقال : (ما يضحككن) قالت : يا رسول الله إن الحولاء سألتها عن أمرها فقالت ما رفع عنى زوجى ثوباً منذ كذا وكذا ، فأرسل إليه فدعاه فقال : (مالك يا عثمان) قال : إنى تركته لله لكى أتخلى للعبادة ، وقص عليه أمره ، وكان عثمان قد أراد أن يجب نفسه فقال رسول الله ﷺ : (أقسمت عليك إلا رجعت فواقعت أهلك) ، فقال يا رسول الله : إنى صائم فقال : (أفطر) فأفطر وأتى أهله ، فرجعت الحولاء إلى عائشة وقد امتشطت واكتحلت وتطيبت فضحكت عائشة وقالت : مالك يا حولاء فقالت : إنه أتاها أمس وقال رسول الله ﷺ : (ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم ألا إنى أنام وأقوم وأفطر وأصوم وأنكح النساء ، فمن رغب عنى فليس منى) ، فنزلت ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا** ﴾ يقول لعثمان لا تجبّ نفسك ، فإن هذا هو الاعتداء ، وأمرهم أن يكفروا عن أيمانهم فقال : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا تعتدوا** ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه ولا تبالغوا فى التضييق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم ، كما قاله من قاله من السلف ، ويحتمل أن يكون المراد كما لا تحرموا الحلال فلا تعتدوا فى تناول الحلال ، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ، ولا تجاوزوا الحد فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾[2] ، وقال : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ فشرع الله عدل بين الغالى فيه والجافى عنه لا إفراط ولا تفريط ولهذا قال : ﴿ **لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ ثم قال : ﴿ **وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً** ﴾ ، أى فى حال كونه حلالا طيبا ﴿ **واتقوا الله** ﴾ ، أى فى جميع أموركم واتبعوا طاعته ورضوانه واتركوا مخالفته وعصيانه ، ﴿ **الذى أنتم به مؤمنون** ﴾ .

وما أعظم قوله تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾[3] .

أحكام تتعلق بالإيمان

لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ

(١) الآية ٨٩ من سورة المائدة . (٢) الآية ٣١ من سورة الأعراف . (٣) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة الأعراف .

يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

المفردات ﴿ **اللغو فى اليمين** ﴾ : ما يجرى على اللسان بغير قصد . ﴿ **كفارته** ﴾ : أعمال تكفر بعض الذنوب أى تغطيها وتسترها . ﴿ **من أوسط** ﴾ : المراد الوسط فى الطعام بلا مبالغة فى التقتير أو الإسراف . ﴿ **أو تحرير** ﴾ : عتق رقبة .

وردت فى اليمين اللغو أقوال نبينها فى ما يلى :

قال الشافعى : هو قول الرجل فى الكلام من غير قصد : لا والله بلى والله . وقيل هو فى الهزل ، وقيل فى المعصية ، وقيل على غلبة الظن ، وهو قول أبو حنيفة وأحمد ، وقيل فى اليمين فى الغضب ، وقيل فى النسيان ، وقيل هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس واستدلوا بقوله ﴿ **لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم** ﴾ والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله : ﴿ **ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان** ﴾ أى بما صممتم عليه منها وقصدتموها .

(**فكفارته إطعام عشرة مساكين**) . يعنى محاويج من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه ، وقوله ﴿ **من أوسط ما تطعمون أهليكم** ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة : أى من أعدل ما تطعمون أهليكم .

واختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ **من أوسط ما تطعمون أهليكم** ﴾ أى فى القلة والكثرة . والاعتدال فى كل شىء مطلوب شرعاً ، والأوسطية هى التى بين الإسراف والتقتير ، وقد ذكروا فى مقدار الطعام أن يغذيهم ويعشيهم غداء وعشاء مشبعين من أكل من أكل وسط ، أما الكسوة فخير ما قيل فيها هو ما رآه مالك وابن حنبل وهو أن يعطيهم من الثياب ما تصح به الصلاة ، أما تحرير الرقبة فهو عتقها سواء أكانت مؤمنة أم غير مؤمنة ، فهو مخير بين هذه الأمور : الإطعام ، أو الكسوة ، أو التحرير ، فمن لم يجد ذلك ولم يستطع إطعاماً أو كسوة أو عتقاً فعليه صيام ثلاثة أيام متتابعة على الصحيح ، وقد فسروا الاستطاعة بأن يكون عنده ما يزيد على إطعام أهله يوماً وليلة . فإن عجز عن ذلك كله استقر الحق فى ذمته حتى يستطيع ، ذلك المذكور كفارة أيمانكم إذا حلفتم حلفا شرعيا وحنثتم ،واحفظوا أيمانكم، فلا تبذلوها لأتفه الأسباب ، ولا تجعلوها عرضة ، وإن حنثتم فاحفظوها بالكفارة ، وإن حلفتم فلا تنسوا ما حلفتم عليه ، ولا تحنثوا إلا لضرورة ، ويكون الحنث فيها أفضل من السير مع اليمين ، مثل هذا البيان الشافى الواضح يبين الله لكم آياته وأحكام دينه ليعدكم ويؤهلكم لشكره على نعمه جل شأنه .

أما اليمين الغموس ، وهى التى يقصد بها ضياع حق لمسلم ، أو يقصد بها غش أو خيانة ، فلا يكفرها عتق ولا صدقة ولا صيام ، بل لابد من توبة ورجوع إلى الله ، مع أداء الحقوق لأربابها ، قال رسول الله ﷺ : (من حلف على يمين صبْر وهو فيها فاجر يقتطع بها مال امرىء مسلم لقى الله وهو

عليه غضبان)[١] : رواه البخارى ومسلم . يقول الله : (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم * ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إن ما عند الله هوخيرلكم إن كنتم تعلمون)[٢] . وقد ذم الله تعالى كل من يكثر الحلف فقال : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾[٣] فعليك أيها المسلم أن تراعى فى الأيمان هذه التوجيهات الشرعية :

١ - لا تحلف إلا لضرورة تدعوك لذلك .

٢ - إذا حلفت فلا تحلف إلا بالله وحده لا شريك له ، فمن حلف بغير الله فقد كفر وأشرك ، أما الذى يحلف بما شاء من المخلوقات فهو الله وحده لأنه خالق الكائنات ، وقد حلف سبحانه بأنواع من مخلوقاته كالشمس والقمر ، والليل والنهار ، والسماء والأرض ، ونفس وما سواها ، كما حلف بالتين والزيتون ، وطور سنين ، والبلد الأمين ، ولكنه لم يحلف بحياة أحد إلا بحياة النبى ﷺ فقال : (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون)[٤] .

والله ما خلق الإلـه ومـا برى بشرا يُرى كمحمد بين الـورى
يا سيد العقلاء يا خير الـورى يا من أتـيت إلى الحيـاة مبشرا
وبعثت بالقـرآن فينـا هاديـا وطلـعت فى الأكـوان بدرا نيراً

٣ - وإذا حلفت فلا تحلف إلا صادقا ، لأن الحلف بالله كاذبا يعتبر من الكبائر ، وهى يمين الغموس التى قال عنها النبى ﷺ (اليمين الغموس تذر الديار بلاقع) أى خرابا يباباً ، واليمين الفاجرة منفقة للسلعة ، ممحقة للربح ، وإنما سميت غموسا لأنها تغمس صاحبها فى نار جهنم جزاء وفاقاً ، لأنه حلف بالله كاذبا متعمدا .

قوله تعالى : ﴿ **كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون** ﴾ أى يفصل لكم أحكامه تفصيلاً بيناً واضحاً ، فليكن منكم الشكر له تعالى على ما أنعم به عليكم من البيان ، وتفصيل الأحكام ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليكم حكيم ﴾[٥].

تحريم الخمر والميسر وغيرهما

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ

(١) أخرجه البخارى فى الأيمان (١١ ، ١٧) وفى التفسير (سورة ٣) (٢) وفى الأحكام (٣٠) وأخرجه مسلم فى الأيمان (١٧٦ ، ٢٢٠) والترمذى فى تفسير سورة ٤ (٦) ، (٣ ، ٤٩٥) (٥ : ٢١١ ، ١١٢) .
(٢) الآيتان ٩٤ ، ٩٥ من سورة النحل .
(٣) الآية ١٠ من سورة القلم .
(٤) الآية ٧٢ من سورة الحجر .
(٥) الآية ٢٦ من سورة النساء .

فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

المفردات ﴿ **الخمر** ﴾ : كل شراب مسكر . ﴿ **الميسر** ﴾ : فى أصل اللغة : القمار بالقداح فى كل شيء ، ثم غلب فى كل مقامرة . ﴿ **الأنصاب** ﴾ : حجارة كانت حول الكعبة يذبحون قرابينهم عندها . ﴿ **الأزلام** ﴾ : قطع رقيقة من الخشب كالسهم كانوا يستقسمون بها . ﴿ **رجس** ﴾ : مستقذر حساً ومعنى . ﴿ **طعموا** ﴾ : طعم الشيء يطعمه ذاق طعمه عن طريق الأكل أو الشرب .

روى أن عمر كان يدعو الله تعالى قائلا : اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافيا . فلما نزلت آية البقرة ظل على دعائه ، ولما نزلت آية النساء ظل كذلك على دعائه ، فلما نزلت آية المائدة وسمع قوله تعالى : ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ ، قال انتهينا .. انتهينا . وكانت هذه الآية هى الفاصلة القاضية .

روى أن عمر قال حين سمع ﴿ **إنما الخمر والميسر** ﴾ : أقرنت بالميسر والأنصاب والأزلام : بعداً لك وسحقاً ، وتركها الناس وأراقوها فى الطرقات . وروى عن ابن عباس قال : إنما نزل تحريم الخمر فى قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا وثملوا واعتدى بعضهم على بعض ، فلما صحوا جعل يرى الرجل منهم الأثر بوجهه ولحيته فيقول : صنع بى أخى فلان هذا ، لو كان رءوفا بى ورحيما ما صنع هذا . وقد وقعت بينهم ضغائن فأنزل الله ﴿ **إنما الخمر والميسر** ﴾ فقال ناس : هى رجس ، وهى فى بطن فلان مثلاً وقد قتل يوم أحد ، وفى بطن فلان وقد قتل يوم بدر ، فأنزل الله : ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح** ﴾ الآية .

ولعلك تسأل : ما الحكمة فى تحريم الخمر تدريجيا .

وما علمت أنها الحكمة العالية ، والدواء الناجع لهذا الداء المتأصل الذى أدمنت العرب على شربه ، فلو حرمت الخمر دفعة واحدة لكان ذلك أدعى لتنفير الناس من الدين كله .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ بالله ورسوله ، والذين خالط قلوبهم نور الإسلام وبرد اليقين : اعلموا أن هذا الوصف يوجب عليكم الامتثال لأمر الله والتزام حدود الشرع ، واعلموا أنما الخمر ، وهى ما خامر العقل أى ستره فأستره ، رجس من عمل الشيطان وصنعه وهو عدوكم اللدود ، الذى لا يعمل إلا للشر ، ولا يزين إلا للهلاك .

ولقد خطب عمر بن الخطاب يوماً على منبر الرسول ﷺ فقال : (قد نزل تحريم الخمر يوم نزل وهى من خمسة : من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير ، والخمر ما خامر العقل)[1] : وهذا أبين بيان فى حقيقة الخمر ، يخطب عمر بالمدينة على مرأى ومسمع من صحابة رسول الله ﷺ ، وهم أهل اللسان والبيان ، وأعلم الناس بلغة القرآن ، فلا ينكر أحد عليه ، ولا يستفسر أحد عن نوع دون نوع ، ولا ننسى قوله ﷺ : (كل مسكر خمر وكل مسكر حرام)[2] فإذن كل مادة مغيبة للعقل مهلكة للصحة فهى خمر وإن تعددت الأسماء ، وإذا ثبت هذا بطل رأى القائلين بأن الخمر لا تكون إلا من العنب ، وما كان من غيره لا يسمى خمراً .

والنبيذ قديما عبارة عن تمر أو زبيب ينقع فى ماء حتى يحلو الماء فيشرب ، وهذا حلال حيث لم يختمر ولم يسكر ، وأقرب الأشياء به ما يسمى بالخشاف فى مصر ، أما النبيذ المستعمل الآن فخمر وحرام ومسكر .

إنما ذلك رجس وقذارة ، وأى رجس أكبر من هذا ، فالخمر والميسر مستقذران حساً ومعنى من ناحية الشرع والعقل ، وهما من عمل الشيطان وصنعه ، فاجتنبوا هذا الرجس واتركوه ، واجعلوه فى جانب ، وأنتم فى جانب ، رجاء أن تفلحوا وتفوزوا بما فرض عليكم من تزكية أنفسكم وسلامة أبدانكم .

وبعد هذا يبين الله السر فى هذا الأمر ويبين خطرهما فى الدنيا والآخرة وضررهما اجتماعياً ودينياً .

أما الخطر الاجتماعى فالشيطان ، إنما يريد لكم بشرب الخمر ولعب الميسر أن تقع بينكم العداوة والبغضاء فيقضى على جماعتكم ، ويشتت شملكم ، ويهدم كيانكم ، والإسلام حريص جداً على أخوتكم واتحادكم وتضامنكم وإزالة أسباب الشقاق والنزاع فيما بينكم .

والشواهد على هذا كثيرة واضحة ، ولا غرابة فى هذا ، فالخمر تذهب العقل الواعى وتستره ، وهو الذى يدرك قواعد العرف والدين التى تمنعنا عن الشر والوقوع فيه ، فإذا ضاع واستتر ظهر الإنسان بشهواته وطبيعته الحيوانية ، يأتى الدنية ، ويقوم بأحط الأعمال وأقذرها .

والميسر وما فيه من ربح وخسارة بلا عمل ولا تجارة مثار العداوة والبغضاء فى نفس الخاسر وحزبه .

---

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٥ (١٠) وفى الأشربة (٢ ، ٥) وأخرجه مسلم فى تفسير ٣٢ (٣٣) . وأخرجه أبو داود فى الأشربه (١) . والنسائى فى الأشربة (٢٠) .

(٢) أخرجه مسلم فى الأشربه (٧٣ ، ٧٥ ، ٦٤ ، ٦٩) وأخرجه البخارى فى الأدب (٨٠) وفى الأحكام (٢٢) وفى المغازى (٦٠) ، وأخرجه أبو داود فى الأشربه (٥ ، ٧) . والترمذى فى الأشربه (١ ، ٢) . والنسائى فى الأشربة (٨ ، ٤٠ ، ٤٩) وابن ماجه فى الأشربه (٩ ، ١٣ ، ١٤) والدارمى فى الأشربه (٨) . والإمام مالك فى الضحايا (٨) . والإمام أحمد فى (١ ، ٢٧٤ ، ٢٨٩ ، ٣٥٠) وفى (٢ ، ١٦ ، ٢٩ ، ٣١ ، ١٨٥) وفى (٣ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ١١٢ ، ١١٩ ، ٢٣٧) وفى (٤ ، ٤١٠ ، ٤١٦ ، ٤١٧) وفى (٥ : ٣٥٦) وفى (٦ : ٣١٤ ، ٣٣٣) .

أما ضياع الشخصية وفناء الشباب وهلاك الصحة والانغماس فى تيار الرذيلة فشىء لا ينكره عاقل ، ولا يحتاج إلى نص .

وأما الناحية المالية فحدث عنها ولا حرج ، فكم من البيوت خربت ، وكم من الأموال بددت على الموائد الخضراء والحمراء فى الليل والنهار .

وأما الخطر الدينى ، وما أدراك ما هو ، فهما يصدان عن ذكر الله الذى يجلى القلوب ويزكيها ، ويطهر النفوس ويهديها ، وهما يمنعان عن الصلاة التى هى عماد الدين ، إذ السكران لا عقل له ولا قلب ، فكيف يهتدى إلى الخير وإلى الصلاة ولاعب الميسر يجلس الساعة والساعات بل يواصل ليله بنهاره لا يدرى ما حوله ، ولا يشعر بنفسه ، قد نسى بيته وأهله وولده ، وإنه ليقضى الوقت بين الأوراق والنار تشتعل فى بيته فلا يغيث أهله مع الناس ، فكيف يفكر فى الصلاة ؟ على أنه إذا صلى ، صلى بلا روح ، وبلا قلب ، فهل أنتم يا من اتصفتم بوصف الايمان وتحليتم به منتهون ؟

بعد هذا البيان اللاذع والقول الفاضح ، وهذا أمر بالانتهاء جاء على أسلوب بليغ جداً ، يدركه من يقف على أسرار بلاغة القرآن . وكيف لا يكون هذا شأن الخمر والميسر وقد نفَّر الله منهما ، وأكد تحريمها بوجوه من التأكيد أهمها :

- سماهما رجسا من عمل الشيطان ، بل قصرهما على الرجس لا يتعديانه إلى غيره .
- وقرنهما بالأنصاب والأزلام ، وأنت تعرف أنهما من أعمال الشرك وخرافات الوثنية . (مدمن الخمر كعابد الوثن) .
- وعلق الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة على اجتنابهما .
- وجعلهما مثار العداوة والبغضاء ومبعث الشقاق والشحناء .
- وهما يصدان عن ذكر الله والله يقول : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[1] .

وكان ختام الآية بقوله : ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ على ما فيه من البلاغة والبيان ، أتم صارف للمسلمين عنهما وصاد ؟

وأطيعوا الله تعالى فيما أمركم به ، وأطيعوا الرسول فيما بينه لكم ، واحذروا عاقبة المخالفة وما تجر من الخيبة والندامة ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾[2] .

فإن توليتم بعد هذا فلا تلومن إلا أنفسكم ، واعلموا أنما على رسولنا البلاغ فقط وعلينا الحساب والجزاء ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾[3] .

ومن مات قبل التحريم فلا شىء عليه ، إذ هناك قانون عام وهو : ليس على الذين آمنوا وعملوا

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الرعد . (٢) الآية ٦٣ من سورة النور . (٣) الآية ١٩ من سورة الانفطار .

الصالحات كالذين ماتوا قبل تحريم الخمر وغيره ، ليس عليهم جناح فيما طعموه إذا ما اتقوا الله وعملوا الصالحات الباقيات التى شرعت فى حياتهم ، كالصلاة والصيام وغيرهما ثم اتقوا ما حرم عليهم وآمنوا بما نزل فيه وفى غيره ، ثم استمروا على التقوى والإحسان وعمل الصالحات ، والله يحب المحسنين المتقنين أعمالهم المخلصين فيها .

التداوى بالخمر : قال النبى ﷺ : (إنه ليس بدواء ولكنه داء ، وما جعل الله شفاء أمتى فيما حرم عليها)[١] .

وقول النبى ﷺ إنه داء أكده رأى الطب ، إذ أن الخمر تولد أمراضا كثيرة يموت بها فى كل عام عدد لا يحصى من الناس ، وفكرة التداوى بالخمر حيلة شيطانية حتى تتمكن من النفس وتصبح عادة يصعب انتزاعها .

وحكم شارب الخمر : أربعون جلدة ، وقيل ثمانون ، فقد روى أن النبى ﷺ جلد أربعين وفعل أبو بكر مثله ، فلما كان عمر استشار الناس فقال عبد الرحمن : أخف الحدود ثمانون فأمر به عمر .

ومثل الخمر كل مادة يحصل منها ضرر مالى أو جسمانى أو خطر اجتماعى أو خطر دينى كالحشيش والأفيون أو أى مادة أخرى فهى محرمة حرمة الخمر .

الصيد فى الإحرام وجزاؤه

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

(١) أخرجه البخارى فى الأشربة (١٥) . والدارمى بمعناه فى الأشربه (٦) . ومسلم فى الأشربة (١٢) . وأبو داود فى الطب (١١) . والترمذى فى الطب (٨) .

(٢) أخرجه البخارى فى الحدود (٢ ، ٤ ، ٥) ومسلم فى الحدود (٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨) وأبو داود فى الحدود (٣٥ ، ٣٦) وابن ماجه فى الحدود (١٦) والدارمى فى الحدود (٩) . والإمام أحمد فى (١ : ٨٢ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٥) وفى (٣ : ٦٧ ، ١١٥ ، ١٧٦ ، ٢٤٧) .

المفردات ﴿ **ليبلونكم** ﴾ : ليعاملنكم معاملة من يختبركم . ﴿ **تناله أيديكم** ﴾ : يكون في متناول اليد . ﴿ **حرم** ﴾ : محرمون بحج أو عمرة أو في مكان الحرم . ﴿ **عدل** ﴾ : مساوٍ له .وبال أمره : عاقبة أمره الثقيلة . ﴿ **للسيارة** ﴾ : جمع سيار وهو المسافر .

أحل الله لنا أكل الطيبات من الرزق واستثنى الخمر وما شاكلها ، وهنا أضاف لها الصيد في الإحرام وبين جزاءه .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ بالله وبرسوله ﴿ **ليبلونكم الله** ﴾ ليعاملنكم معاملة من يختبركم ﴿ **بشيء من الصيد** ﴾ أي بعض منه وهو صيد البر لا صيد البحر ، اختبركم بإرساله بحيث يسهل تناول بعضه بالأيدي ، وبعضه بالرماح ، وكيف لا يكون هذا اختباراً وابتلاء والمصيد طعامه لذيذ ، واصطياده حبيب إلى النفس ، خصوصا في الأسفار ، فإذا أضيف إلى ذلك كثرته وعدم تأبيه كان هذا اختباراً ، وأي اختبار ، يفعل الله هذا ليعلم علم ظهور وانكشاف من يخافه بالغيب ومن يخافه أمام الناس فقط ، كالمنافقين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم والله عالم بكل شيء ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم بالامتثال .

فمن اعتدى منكم بعد ذلك البيان البين فله عذاب شديد في الدنيا والآخرة مؤلم غاية الألم .

يا أيها الذين اتصفتم بالإيمان ، وصدقتم بالرسول ، وآمنتم بالقرآن : لا تقتلوا صيد البر ، وهذا النهي هو الابتلاء المذكور في الآية السابقة : لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحج أو عمرة ، أو في مكان الحرم ، وإن لم تحرموا ، وذلك إجلالا للحج وشعائره ، واحتراما للمكان وهيبة له ، وهو مباءة للناس والطير وأمن لهم ، وهذا في الحرم المكي ، أما الحرم المدني فلا يجوز فيه الاصطياد لأحد ، ولا قطع الشجر كحرم مكة ، فإن فعل هذا أحد أثم ولا جزاء عليه عند مالك والشافعي ، ورد عن رسول الله في الصحيح : (اللهم إن إبراهيم حرم مكة وإني أحرم المدينة مثل ما حرم به مكة ، لا يختلى خلاها ــ الخلى النبات الرقيق مادام رطبا ويختلى يقطع ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها)[1]

ومن قتله منكم عامداً قاصداً له فعليه جزاء من الأنعام مماثل له في هيئته وصورته إن وجد المثل وإلا فقيمته ، وقيل يقوم من أول الأمر واعلم أن ما يجزى عن الصيد شيئان دواب وطير فيجزى ما كان من الدواب بنظرة في الخلقة والصورة ففي النعامة بدنة وحمار الوحش بقرة وفي الظبي شاة ألخ .

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٧١ ، ٧٤) وفي المدينة (١) وفي البيوع (٥٣) وفي الأنبياء (١٠) وفي المغازي (٢٧) وفي الأطعمة (٣٥) وفي الدعوات (٣٥) وفي الاعتصام (٦) . وأخرجه مسلم في الحج (٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥٥ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٧٢ ، ٤٧٥ ، ٤٧٨) وأخرجه أبو داود في المناسك (٦٦) والترمذي في المناقب (٦٧) والنسائي في الحج (١١٠ ، ١١١ ، ١٢٠) وابن ماجه في المناسك (١٠٤) والإمام مالك في المدينة (١٠) . والإمام أحمد في (١ : ١١٩ ، ١٦٩ ، ١٨١ ، ١٨٥) وفي (٣ : ٢٣ ، ١٤٩ ، ١٥٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٣٣٦ ، ٣٤٣ ، ٣٩٣) وفي (٤ : ٣١ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٧٧ ، ١٤١) .

وقد ورد عن جابر عن النبى ﷺ قال : « فى الضبع إذا أصابه المحرم كبش وفى الظبى شاة وفى الأرنب عناق »[1] والعناق الأنثى من المعز لم تبلغ سنة .

واعلم أن الآية الكريمة : أفادت أن القتل العمد فيه الجزاء والسنة النبوية أفادت أن الخطأ كذلك وعن سعيد بن جبير : لا أرى فى الخطأ شيئاً أخذاً بظاهر الآية والله أعلم بكتابه .

والصيد الذى نهت عنه الآية كل حيوان وحشى يؤكل لحمه ، فلا شىء فى قتل الحمار الأهلى مثلا ، ولا مالا يؤكل لحمه من السباع والحشرات والفواسق كالحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور . وألحق مالك بالكلب الذئب والأسد والنمر . « ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم » من أهل المعرفة والعدل من المؤمنين ، وإنما احتجنا للتحكيم لأن المماثلة بين النعم والصيد مما تخفى على كثير ، خصوصاً فى هذه الأيام وقد توالدت أشكال وأصناف من الحيوان والطيور ، ومالا مثل له يحكم فيه بالقيمة . « يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة » واصلا إليها يذبح عندها ويفرق على مساكين الحرم .

نعم عليه جزاء مماثل لما قتل أو كفارة هى أن يقوّم الصيد الذى أصابه فينظر كم ثمنه من الطعام ، فيطعم لكل مسكين مدا أو يصوم مكان كل مد يوما وعند أبى حنيفة يقوم الصيد أولاً وجد له مثل أولا ، والآية لا تمنع هذا روى ابن جرير عن ابن عباس قال : إذا قتل المحرم شيئا من الصيد فعليه من الجزاء فإن قتل ظبيا أو نحوه فعليه ذبح شاة تذبح بمكة فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام .

أوجبنا هذا ليذوق عاقبة أمره ، وسوء فعله ، حيث هتك حرمة الإحرام ، عفا الله عما سلف قبل نزول الآية .

ومن عاد بعد هذا ، فينتقم الله منه ، أشد الانتقام فى الآخرة ، والله عزيز الانتقام ، لا يغلبه عاص أو مذنب .

أيها المسلمون : أحل لكم صيد البحر سواء كان حياً أو ميتاً قذفه البحر أو طفا على وجهه أو انحسر عنه الماء فهو الحل ميتته الطهور ماؤه أحله الله متاعاً لكم وللسيارة المسافرين ، فمن كان مقيما فليأكل من صيده الطاهر الطازج ، ومن كان مسافرا فعنده السمك المحفوظ ، وحرم عليكم صيد البر من الوحش والطير ما دمتم حرماً ، أى فلا مانع من أكل ما صاده غيركم أو صدتموه فى غير الإحرام عن النبى ﷺ قال : (صيد البر حلال لكم ما لم تصيدوه أو يُصد لكم واتقوا الله الذى إليه تحشرون) .

---

(١) أخرجه الدارمى فى المناسك (٩٠) . والإمام مالك فى الحج (٢٣٠) . وابن ماجه فى المناسك (٩٠) .

البيت الحرام والشهر الحرام ومكانتهما

* جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾

المفردات ﴿ **جعل** ﴾ : يصح أن تفسر بالجعل التكوينى الخلقى ، أو التشريعى . ﴿ **الكعبة** ﴾ : البيت المربع . وقيل المرتفع ، وقد غلب اسمها على البيت المقدس الذى بناه إبراهيم وإسماعيل بمكة عليهما السلام . ﴿ **قياماً للناس** ﴾ : ما به يقوم أمرهم ، ويصلح شأنهم ، (الشهر الحرام والهدى والقلائد) تقدم تفسير ذلك أول السورة .

قال الرازى : الله تعالى حرم فى الآية المتقدمة الاصطياد على المحرمين ، فكان الطير والوحش آمنا على نفسه وولده ، وفى هذه الآية أفاد أن الحرم سبب لأمن الناس وهدايتهم وسبب لحصول الخيرات والسعادة فى الدنيا والآخرة .

جعل الله الكعبة البيت قياما للناس الذين يسكنونها ، حيث يجلب إليهم الخيرات ورزقهم من الثمرات ، ويجعل قلوب الناس تهوى إليهم ، وتعطف عليهم ، وبذلك يكون أمرهم ويصلح شأنهم ، وهكذا من حج إليها واعتمر يجدون فيها الخير والسعادة والراحة والطمأنينة كل ذلك إجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى ﴾[١] الآية . وجعلها الله قياماً للناس فى أمر دينهم ، المهذب لأخلاقهم ، المزكى لأنفسهم ، أليست مكان الحج ؟ الذى هو ركن من أركان الدين ، فيه يعقد المؤتمر العام للمسلمين الذى يهرعون إليه من كل فج عميق ، كبارهم وزعماؤهم وأغنياؤهم ، يتباحثون ويقفون على أمور دينهم ، وتنبعث القوة فى نفوسهم ، ويتجدد الإسلام فى أعماقهم ، وتتأكد الرابطة بينهم ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾[٢] . وجعل الله الشهر الحرام قياما للناس لذلك ، فهو مثابة للناس وأمن فى الجاهلية والإسلام ، فيه يأمنون على أنفسهم وتجارتهم وأموالهم ، فيه يلقى السلاح ، وتهدأ النفوس ، وتسكن الفتن ، وتخمد نار الحرب المستعرة . ألست معى فى أنه قيام للناس ﴿ أو لم يروا أن جعلنا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حولهم ﴾[٣] .

وكان الهدى والقلائد قياما للناس ، فمن بذلها قومت له دينه ، وكفرت عنه ذنبه ، وطهرت له نفسه ، وزكت ماله ، وجعلته آمنا على نفسه ، وهى عند من يأخذها قوام حياته .

كل ذلك لتعلموا أن هذه الأمور لحكم الله يعلمها ، ولا يمكن أن تصدر إلا من عالم بما فى السماوات والأرض ، وأنه بكل شىء عليم ، والناظر إلى الحج يجده دعامة من أقوى الدعائم للاسلام ،

(١) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم . (٢) الآية ١٠ من سورة الحجرات . (٣) الآية ٦٧ من سورة العنكبوت .

يعرفه الغربيون ويعرفون أثره فى نفوس المسلمين ، وما يحصل بسببه من تقويه أواصر الصلات وإذكاء روح الدين بين المؤمنون .

ترغيب وترهيب

اَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾

المفردات ﴿ **الخبيث والطيب** ﴾ : الحلال والحرام . ﴿ **الألباب** ﴾ : العقول .

الله سبحانه عليم بكل شىء ، وعليم بما فى السموات وما فى الأرض ، وهو القاهر فوق عباده ، الرحمن الرحيم ، ومقتضى هذا كله أنه لم يخلقنا عبثا ، ولم يتركنا هملا ، بل لا بد من جزاء العاصى ، وإثابة المطيع واعلموا أن الله شديد العقاب ، وسريع الحساب ، وقوى العذاب لمن عصى وطغى، وتجبر وبغى ، وهو رءوف بالعباد غفور للسيئات رحيم بمن عمل سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح ، وأما من نشأ طائعاً ولم تدنس نفسه بسوء أبدا فهنيئا له الرضوان ، ثم هنيئا .

وإذا كان الأمر كذلك فاعلموا أنه ما على الرسول إلا البلاغ ، وعلى الله وحده الحساب ، وإليه المرجع والمآب ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ، وهو الذى يعلم السر وأخفى ، والغيب والشهادة ، فاتقوا الله واحذروا حسابه ، قل لهم يا أيها الرسول لا يستوى الخبيث والطيب ، والحلال والحرام ، وهل يستوى الجيد والردىء ، وكيف يستويان : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض . أم نجعل المتقين كالفجار ﴾[1] .

﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون ﴾[2] .

قل لهم لا يستوى الخبيث والطيب أبدا ولو **أعجبك كثرة** الخبيث من العصاة والكفار ، وقلة الطيب من المسلمين والأبرار ، فاتقوا الله يا أولى **الألباب** ، وتذكروا فإنما يتذكر أولو العقول الصحيحة الذين يحكمون أحكاماً سليمة موفقة ، تفرق بين النافع حقيقة وإن شابه تعب ومشقة وبين الضار المهلك وإن زينت له الدنيا وازخرفت .

السؤال الضار

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ

(١) الآية ٢٨ من سورة ص .

(٢) الآية ٢١ من سورة الجاثية .

ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾

روى مسلم عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ﴿ أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا . فقال رجل : أكل عام يا رسول الله !؟ قال : لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم فأنزل الله هذه الآية ﴾[1] :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ بالله ورسوله ﴿ لا تسألوا عن أشياء ﴾ من أمور الدين ودقائقه التى تركت رحمة بكم وإشفاقاً عليكم . وقيل المعنى : لا تكثروا من السؤال عما لا يعنيكم من أحوال الناس وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ ولا تجسسوا ﴾[2] .

وليس المراد النهى عن السؤال مطلقا فى أمور الدين ، لابل قد أقر الشرع سؤالهم عن توضيح أحكام العدة والخمر وغيرهما ، فلا حرج فى مثل هذا ، وإنما الحرج فى التشدد فى العمل وكثرة التكاليف ، لأن هذا قد يؤدى للإهمال وقد يؤدى إلى الخروج من الدين كما حصل فى الأمم السابقة .

وقد سأل سائل منهم النبى ﷺ عن أبيه من هو وهل الحج واجب فى كل سنة أم لا وغير ذلك ، من الأسئلة المحرجة التى فيها العنت والمشقة على الناس ، والله أعلم بخلقه وقدرته . وإن يسألوا عن غير هذه المسائل الشائكة مما تمس الحاجة إليه من تحريم أو تحليل أو حكم جديد يجابوا إلى طلبهم فإنه خير ، وقد أباح الله هذا النوع من السؤال فالنهى إذن فى شىء لم يكن لهم حاجة إلى السؤال فيه ، وكان الإجابة عنه مشقة وزيادة كلفة وقيل لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها ﴿ إن تبدلكم تسؤكم ﴾ وعلى هذا خرج حديث ثعلبة الخشنى قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم حرمات فلا تنتهكوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها) .

قد سأل مثلهم قوم قبلكم فلما أجيبوا وفرضت عليهم كفروا بها وقالوا ليست من عند الله ، وما قوم صالح وأصحاب المائدة منكم ببعيد .

فاعتبروا يا أولى الأبصار ولا تشددوا فيشدد الله عليكم فإن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه الدين فسددوا وقاربوا .

نوع من ضلال الجاهلية

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ

(١) أخرجه البخارى فى الأعتصام (٢) . ومسلم فى الحج (٤١٢) . والنسائى فى المناسك (١) وابن ماجه فى المقدمة (١) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٣١٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٧ ، ٤٦٧ ، ٤٨٢ ، ٤٩٥ ، ٥٠٨) .

(٢) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

المفردات ﴿ **بحيرة** ﴾ : هى الناقة يبحرون أذنها أى يشقونها شقاً واسعا إذا نتجت خمسة أبطن وكان الخامس أنثى ، وكان يمنح درها للطواغيت فلا يحلبها أحد . (السائبة) . الناقة التى تسيّب لآلهتهم فترعى حيث شاءت ، ولا يحمل عليها ولا يجز صوفها ، ولا يأخذ لبنها إلا ضيف . ﴿ **الوصيلة** ﴾ : الشاة أو الناقة التى تصل أخاها . فقد كانوا إذا ولدت الشاة ذكراً كان لآلهتهم وإذا ولدت أنثى كانت لهم ، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم ، وقيل فى تفسيرها غير ذلك . ﴿ **الحام** ﴾ : الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن فيقولون حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

أيها المسلمون ما جعل الله فى الدين الإسلامى من بحيرة ولا سيب سائبة ولا وصل وصيلة ولا حمى حامياً ، أى ما شرع ذلك ولا أمر به ، فما كان يفعله الجاهليون فهو رد عليهم غير مقبول منهم .

ولكن الذين كفروا إذ يفعلون ما يفعلون إنما يفترون على الله الكذب حيث قالوا أمرنا الله بهذا : ﴿ **سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا .. إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون** ﴾[1] .

وإذا قيل لهم تعالوا أيها الضالون إلى نور القرآن ، وإلى هدى الرسول ، وحكموا عقولكم ، وانزعوا عنها غطاء التعامى عن آيات الله ، قالوا غروراً وجهلاً وسفهاً وحمقاً : ﴿ **حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا** ﴾ فآباؤنا مصدر التشريع الصحيح ، ايتبعونهم ويتركون الدين الصحيح والتشريع القويم ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً أبداً ولا يهتدون إلى خير أصلاً ، ولا غرابة فهم الذين عاشوا فى العداوة والبغضاء والحروب والغارات وشرب الخمر ووأد البنات وعمل الفحش والمنكرات .

وهل كانت هناك جاهلية جهلاء وضلالة عمياء أسوأ من هذا .

فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

بعد ما سبق من توجيهات تتعلق بالأحكام الشرعية وتنفى ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم ما أحل الله من البحيرة والسائبة وغير ذلك ، نعى القرآن الكريم عليهم ما كانوا عليه من تقليد الآباء ، وأن

---

(١) الآية ١٤٨ من سورة الأنعام .

ذلك كان معولا من معاول الهدم ، إذ أن المسئولية فى الإسلام فردية ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾[1] فما بالنا إذا كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ؟ إن الخطب عندئذ فادح والهول جسيم .

بعد ذلك يأتى الخطاب من صاحب العظمة والكبرياء إلى الجماعة المؤمنة التى عرفت بإيمانها واستجابتها لأوامر الله ورسوله . جاء الخطاب مرشدا وموجها لأمر جد خطير تبنى عليه قوة الأمة وتأثيرها فى عالم البشر ، إنه الأمر بالتزام شئون أنفسها ، وذلك بالإعداد والتكوين والاتحاد والألفة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فإذا ما استمسكت الجماعة المؤمنة بأحكام ربها ونفذت أوامره وطبقت شرائعه ، فإن أى قوة على وجه الأرض مهما كان ضلالها ، لا يمكن أن تضير هذه الجماعة التى أصبحت كالبنيان المرصوص والتى أصبحت سماتها كما صورها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾[2] .

ومن الخطأ الشائع أن يقال إن الإنسان متى لزم شأن نفسه أصبح خاليا من مسئولية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فذلك فهم سقيم برئت منه ساحة الآية الكريمة . فخبرنى بربك كيف يكون للمجتمع كيان إذا لزم كل إنسان نفسه فلم يأمر بمعروف ولم ينه عن منكر ، إنه مجتمع الرذائل والخور ، إنها السلبية القاتلة والآية تدعو إلى قوة المجتمع الإسلامى : ﴿ **عليكم أنفسكم** ﴾ هكذا بصيغة الجمع ولو كانت كما يدعون ويزعمون لجاء الخطاب بصيغة الإفراد : ﴿ **يا أيها المؤمن عليك نفسك** ﴾ ما من مجتمع يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا كان العز رائده والنصر حليفه وألبسه الله لباس العز والشرف . ومامن مجتمع لا يؤمر فيه بمعروف ، ولا ينهى فيه عن منكر إلا كان الذل رائده ، والفشل حليفه ، وأذاق الله أهله الخوف والجوع بما كانوا يصنعون : الدين النصيحة ، والناس بخير ماتناصحوا ، وها نحن أولاء نسوق من الأحاديث ما يجعل المعنى جليا جلاء يزيل كل لبس وينفى كل غموض :

قال العوفى عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية : يقول تعالى إذا ما العبد أطاعنى فيما أمرته به من الحلال ونهيته عنه من الحرام فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به .

قال الإمام أحمد : حدثنا قيس قال : قام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾ الآية وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه)[3] .

وروى الإمام أبو عيسى الترمذى قال : حدثنا أبو أمية الشعبانى قال : أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت :

(١) الآية ٣٨ من سورة المدثر . (٢) الآية ٧١ من سورة التوبة .

(٣) أخرجه أبو داود فى الملاحم (١٧) . والترمذى فى الفتن (٨) وفى تفسير سورة ٥ (١٧) . وأخرجه ابن ماجه فى الفتن (٢٠) . والإمام أحمد فى (١ ، ٢ ، ٥ ، ٧ ، ٩) وفى (٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦) وفى (٦ : ٣٣٣) .

له : كيفَ تصنع فى هذه الآية ؟ قال أية آية قلت : قول الله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيرا . سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : (بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فإن من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم) قيل : يا رسول الله أجر خمسين رجلا منا أو منهم ، قال : (بل أجر خمسين منكم)[١] .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن الحسن أن ابن مسعود رضى الله عنه سأله رجل عن قول الله : ﴿ **عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾ فقال : إن هذا ليس بزمانها ، إنها اليوم مقبولة ولكن قد يوشك أن يأتى زمانها تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا فلا يقبل منكم فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل .

ورواه أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أبى العالية عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل** ﴾ قال : كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوسا فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه فقال رجل من جلساء عبد الله : ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر : فقال آخر إلى جنبه : عليك بنفسك فإن الله يقول : ﴿ **عليكم أنفسكم** ﴾ الآية ، قال : فسمعها ابن مسعود فقال : مه لم يجىء تأويل هذه بعد ، إن القرآن أنزل حيث أنزل ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزل ومنه آى قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ ومنه آى قد وقع تأويلهن بعد النبى ﷺ بيسير ومنه آى يقع تأويلهن بعد اليوم ومنه آى تأويلهن عند الساعة ، ما ذكر من الساعة ، ومنه آى يقع تأويلهن يوم الحساب ، ما ذكر من الحساب والجنة والنار . فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعا ، ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهوا ، وإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعا وذاق بعضكم بأس بعض ، فامرؤ ونفسه وعند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية. رواه ابن جرير .

وليعلم المسلمون أن الله تبارك وتعالى لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان دواد وعيسى ابن مريم لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . فكن يا أخى كما قال لقمان لابنه : (يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور)[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ تنبيه للغافلين الذين شغلتهم الدنيا عليهم أن يعلموا أنه لابد من يوم يُرجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون . فاليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل . كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول لعمر بن مهاجر : إذا رأيتنى ضللت الطريق فخذ بمجامع ثوبى وهزنى وقل لى : اتق الله يا عمر فانك ستموت .

(١) أخرجه أبو داود فى الملاحم (٧) . والترمذى فى تفسير سورة ٥ (١٨) وابن ماجه فى الفتن (٢١) .

(٢) الآية ١٧ من سورة لقمان .

نعم هذا نموذج رفيع من النماذج التى تخرجت فى مدرسة الإسلام فمن خاف سلم ، ومن ذاق عرف ، ومن حُرم انحرف .

غدا توفى النفـــوس ما كسبت ويحصد الزارعـــون ما زرعـــوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهـــم وإن أساءوا فبـئس ما صنعـــوا

أحكام تتعلق بالوصية عند الموت

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

المفردات ﴿ **شهادة** ﴾ : هى قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصير أو بصيرة . ﴿ **ضربتم فى الأرض** ﴾ : سافرتم ، لأن المسافر يضرب الأرض برجليه . ﴿ **تحبسونهما** ﴾ : تمسكونهما . ﴿ **إن ارتبتم** ﴾ شككتم فى صدقهما فيما يقران به . ﴿ **عُثر** ﴾ اطلع وأعثر عليه : أعلمه به . ﴿ **الأوليان** ﴾ : تثنية أولى وهو الأحق بالشيء . ﴿ **أدنى** ﴾ : أقرب .

عندما نذكر سبب نزول هذه الآيات يتضح لنا معناها ، كما يتجلى لنا مدى حرص الإسلام على أداء الأمانات كاملة غير منقوصة ، ومدى حرصه على الصدق دونما نظر إلى العواقب ، فالصدق منجاة ، والإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك . وقد مدح الله تعالى الصادقين عندما خرطهم فى سلك المسلمين والمؤمنين ، فقال : ﴿ والصادقين والصادقات ﴾[1] وحكم للمتصفين بتلك الفضائل بقوله : (أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) . وهل يستطيع إنسان أن يكتم الله شيئا .

الله يدرى كل ما تضمـــــــــر يعلـم ما تخفـى ومـا تظهـــر
وإن خدعت النـــاس لم تستطـع خداع من يطـوى ومـــن ينشر

(١) الآية ٣٥ من سورة الأحزاب .

الله تعالى عليم بذات الصدور ، يعلم خائنة الأعين ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى .

جاء فى سبب نزول هذه الآيات : كان تميم الدّارى ، وعدى بن بدّاء رجلين نصرانيين يتّجران إلى مكة فى الجاهلية ، ويطيلان الإقامة بها ، فلما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة حولا متجرهما إلى المدينة ، فخرج بديل مولى عمرو بن العاص تاجرا حتى قدم المدينة فخرجوا جميعا تجارا إلى الشام . حتى إذا كانوا ببعض الطريق اشتكى بديل فكتب وصية بيده ثم دسها فى متاعه ، وأوصى إليهما أن يوصلا متاعه إلى أهله . فلما مات فتحا متاعه ، فأخذا منه شيئا ثم حجراه كما كان وقدما المدينة على أهله ، فدفعا متاعه ، ففتح أهله متاعه فوجدوا كتابه وعهده وما خرج به وفقدوا شيئا فسألوهما عنه فقالوا : هذا الذى قبضنا له ، ودفع إلينا ، فقالوا لهما هذا كتابه بيده ، قالوا : هذا الذى قبضنا له ، ودفع إلينا ، فقالوا لهما هذا كتابه بيده ، قالوا : ما كتمنا له شيئا ، فترافعوا إلى النبى ﷺ فنزلت هذه الآية ، فأمر رسول الله ﷺ أن يستحلفوهما فى دبر صلاة العصر بالله الذى لا إله إلا هو . ما قبضنا غير هذا ولا كتمنا ، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا ، ثم ظهر معهما إناء من فضة منقوش مموه بالذهب فقال أهله : هذا من متاعه ، قالا : نعم ولكنا اشتريناه منه ونسينا أن نذكره حين حلفنا فكرهنا أن نكذب نفوسنا ، فترافعوا إلى النبى ﷺ فنزلت الآية ﴿ **فإن عثر على أنهما استحقا إثما** ﴾ فأمر النبى ﷺ رجلين من أهل بيت الميت أن يحلفا على ما كتما وغيبا ويستحقانه .. ثم إن تميما أسلم وبايع النبى ﷺ وقال : صدق الله ورسوله أنا أخذت الإناء مع صاحبى[1] .

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت** ﴾ ، هذا بيان حكم من أحكام الله تعالى يتعلق بالوصية عند الموت فى السفر بدليل قوله تعالى : ﴿ **إن أنتم ضربتم فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت** ﴾ فالمقصود بالضرب فى الأرض هو السفر للتجارة أو غيرها ، قال تعالى : ﴿ وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ﴾[2] فإذا شعر المسافر بدنو أجله ، وأراد أن يكتب وصيته لأهله يخبرهم فيها بما يريد كإثبات ما معه من مال ومتاع سيتركه بعد موته ، فعليه أن يشهد على تلك الوصية اثنين ذوى عدل . قوله تعالى ﴿ **منكم** ﴾ أى من المسلمين إن وُجدا ، ﴿ **من غيركم** ﴾ أى من غير المسلمين إن لم يوجد سوى ذلك . وهذه مسألة خاصة وحكم خاص بالسفر .

كيف يشهدان

قال تعالى ﴿ **تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشترى به ثمنا ولو كان ذا قربى ، ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين** ﴾ . معنى تحبسونهما أى تمسكونهما (من بعد الصلاة) : أى صلاة العصر كما فعل رسول الله ﷺ أو أى صلاة أخرى ، فيحلفان بالله قائلين : ﴿ **لا نشترى به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله** ﴾ بمعنى أننا لا نشترى باليمين أى متاع من متاع الدنيا ، ولا نحيف

(١) أخرجه البخارى فى الوصايا (٣٥) . وأبو داود فى الأقضية (١٩) . والترمذى فى تفسير سورة ٥ (٢٠) .

(٢) الآية ٢٠ من سورة المزمل .

فى الشهادة طمعا فى عرض فان ولو كان الموصى من ذوى قربانا ، فإننا لا نطمع فيما ترك . وإنما تكون هذه الشهادة وذلك القسم عندما يقع الشك والريبة فى قلوب الورثة ، وقد جاء ذلك صريحا فى قوله جل شأنه ﴿ **إن ارتبتم** ﴾ أى شككتم ووقع فى نفوسكم أن الشاهدين قد خانا وكتما شيئا من متاع الميت بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ **فإن عثر على أنهما استحقا إثما** ﴾ أى ظهر واتضح أن الشاهدين قد وقع منهما ما يدل على الخيانة فى الأمانة فالحكم كما قال تعالى : ﴿ **فآخران يقومان مقامهما** ﴾ أى فشاهدان آخران يقومان مقام الشاهدين اللذين عُثر على أنهما خانا ، وليكن هذان الشاهدان الآخران من الذين استحقا الأوليان عليه ، والمقصود بالأوليين : الوارثان من أقارب الميت .

كيف يشهد الأوليان

قال تعالى : ﴿ **فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين** ﴾ وبهذه الشهادة يرد إلى الورثة ما كتمه الشاهدان الأولان أو خاناه . وقول الأوليين : ﴿ **وما اعتدينا** ﴾ أى ما حدث منا تجاوز للحق عندما شهدنا بعد شهادتهما إننا إن فعلنا ذلك فإننا من الظالمين ، ولكننا شهدنا عندما عثر على أنهما استحقا إثما .

أدنى السبل إلى إظهار الحق

قال تعالى : ﴿ **ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها** ﴾ أى ذلك الذى ذكرناه أقرب السبل لإتيان الشهود بالشهادة على وجهها الصحيح إذ أنه يدعو إلى خوف الشهود أن ترد أيمان بعد أيمانهم فيكون ذلك من الفضائح ما فيه ومن الخزى والتشهير ما يندى له جبين الحياء خجلا .

قوله تعالى : ﴿ **واتقوا الله واسمعوا** ﴾ : ما أعظم أن يأتى الأمر بالتقوى بعد بيان الأحكام إذ التقوى هى صمام الأمن فى تنفيذ أوامر الله ، أليست التقوى هى السلاح الأقوى ، بلى لأنها الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ، وما أجمل أن يأتى الأمر بالسمع بعد الأمر بالتقوى . قال تعالى فى حق المؤمنين ﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ الخارجين عن طاعته وقد يكون ذلك بمخالفة أمره والبعد عن طاعته . وخيانة الأمانة وكتمان الشهادة واستحقاق الإثم والكذب فى أداء اليمين من هذا القبيل .

من مشاهد القيامة

* يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١٠٩)

اذكر يا محمد يوم يجمع الله الرسل وهو يوم القيامة : فياله من يوم ما أطوله ويا له من خطب ما أهوله ! ويا له من جبار ما أعدله ! إنه يوم سيجمع الله فيه المرسلين فيسألهم : ﴿ **ماذا أجبتم** ﴾ قال

(١) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .

تعالى : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾[(١)]

وقد بين الله تعالى أنه سيسأل الذين أرسل إليهم فقال : ﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ﴾[(٢)] وقال : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾[(٣)] ، وقال : ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾[(٤)] . وبين أنه سيسأل الرسل فيقول : ﴿ **ماذا أجبتم** ﴾ فيجيب الرسل قائلين : ﴿ **لا علم لنا** ﴾ ، والدافع لتلك الإجابة إما أن يكون لما أصابهم من ذهول من أهوال هذا اليوم العصيب . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[(٥)] . وإما أن يكون المقصود بإجابتهم أن لا علم لنا بجانب علمك فأنت الذى أحطت بكل شيء علماً ، وأحصيت كل شيء عدداً ، وأنت علام الغيوب علمت ما كان وعلمت ما يكون وعلمت ما سيكون ، وعلمت ما لا يكون ، لو كان كيف كان يكون .

وهكذا سأل الله الرسل ، وبهذا أجابوا : وهكذا سأل الذين أرسل إليهم وهكذا تبينت الحقائق : قال تعالى : ﴿ فلنقصنَّ عليهم بعلم وما كنا غائبين ★والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفَّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾[(٦)] .

حديث عن المسيح بن مريم

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾

المفردات ﴿ **روح القدس** ﴾ : جبريل عليه السلام الذى يؤيد به الله رسله بالتعليم والتثبيت . ﴿ **فى المهد وكهلا** ﴾ : فى حالتى الصغر والكبر . ﴿ **الكتاب** ﴾ : المراد كل ما يكتب . ﴿ **والحكمة** ﴾ : العلم النافع . ﴿ **الأكمه** ﴾ من ولد أعمى . ﴿ **سحر** ﴾ : السحر هو التمويه والتخيل

(١) الآية ٦ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ٢٢ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٩٢ من سورة الحجر .
(٤) الآية ٢٤ من سورة الصافات .
(٥) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الحج .
(٦) الآيات ٧ - ٩ من سورة الأعراف .

بالباطل حتى يرى الإنسان الشىء على غير حقيقته . ﴿ **الحواريون** ﴾ الأصحاب الخلص للمسيح .

واذكر يا محمد ﴿ **إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك** ﴾ ، فقد أنعمت عليك بالنبوة ، وجعلتك آية للناس ورحمة منّا ، وجعلت خلقك معجزة ، إذ خلقتك من غير أب ، وأنعمت على والدتك بالاصطفاء والطهر ، ﴿ وإذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾[١] .. ومن نعمى عليك أننى أيدتك بالروح القدس أى الروح الطاهر وهو جبريل الأمين . وقد كنت من الذين تكلموا فى المهد حيث قلت لأمك : ﴿ لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾[٢] وقلت لقومك : ﴿ إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً ﴾[٣] فكان كلامك هذا بمثابة دعوة إلى الله وتبرئة لساحة أمك البتول الطاهرة الناسكة . وكما دعوتهم فى مهدك دعوتهم فى كهولتك .. ومن نعمى عليك أننى علمتك الكتابة وأنعمت عليك بالحكمة . والحكمة علم غزير وعمل موفق وحكم صواب . قال تعالى : ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾[٤] . كذلك علمتك التوراة والإنجيل ، فعرفت ما فى التوراة من أحكام ، وما فى الإنجيل من وصايا . وأظهرت على يديك المعجزات وخوارق العادات فتأتى من الطين كصورة الطير فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرىء الأكمه الذى ولد أعمى فترد عليه بصره ، والأبرص المصاب بهذا الداء الجلدى الخطير فتشفيه من مرضه ، وكل ذلك بإذنى ومن المعجزات التى أجريتها على يديك أنك تخرج الموتى من قبورهم بإذنى . ومن نعمى عليك أننى كففت أذى بنى إسرائيل عنك ومنعتك منهم بعنايتى ورعايتى وحفظى لك وصيانتى ، إذ جئتهم بالبينات الواضحات ، وخوارق العادات ، فقال الكافرون منهم كما قالوا للأنبياء من قبلك : إن هذا إلا سحر مبين : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾[٥] . ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾[٦] .

وهل هناك وجه شبه بين السحر والمعجزة : إن المعجزة حقيقة واقعة لامراء فيها ، أما السحر فإنه تخيلات فى الحس وأوهام فى العقل لا يستند إلى أرض من الواقع ، فهل إبراء الأكمه وشفاء الأبرص تخيلات وأوهام ؟ وهل إخراج الموتى من القبور أحياء تخيلات وأوهام ، كلا . بل إنها معجزات وحقائق . وحقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق ﴿ ويل لكل أفّاك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشرهُ بعذاب أليم ﴾[٧] .

ومن نعمى عليك أننى أوحيت إلى الحواريين وهم أصحابك الخلّص وحى إلهام كالوحى إلى أم موسى ﴿ **أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون** ﴾ فى الآية دليل على أن دين الأنبياء

---

(١) الآية ٤٢ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٢٤ من سورة مريم .

(٣) الآية ٣٠ من سورة مريم .

(٤) الآية ٢٦٩ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٤٣ من سورة فصلت .

(٦) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة الذاريات .

(٧) الآيتان ٧ ، ٨ من سور الجاثية .

جميعا هو الإسلام : قال نوح ﴿ (وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾[١] ، وقال إبراهيم ﴿ أسلمت لرب العالمين ﴾[٢] وقال يوسف ﴿ توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾[٣] وقال يعقوب ﴿ لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾[٤] وقال الله تعالى فى حق الأنبياء : ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾[٥] وقال فى حق خاتمهم : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين★لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾[٦] .

قصة المائــدة

إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾

المفردات ﴿ **الحواريون** ﴾ : الأصحاب الخلص للمسيح . ﴿ **مائدة** ﴾ : هى الخوان الذى عليه الطعام أو الطعام نفسه . ﴿ **اللهم** ﴾ : يا الله . ﴿ **عيدا** ﴾ : فرحا وسرورا أو يوما يجتمع الناس فيه للعبادة كعيد الفطر مثلا يعود كل سنة .

وقصة المائدة عبرة وعظة لمن يطلب من الله آيات غير التى أنزلت ، وعاقبة ذلك ، وهى فى الجملة تسلية للنبى ﷺ وتبين له طبائع الناس وسيرتهم مع أنبيائهم .

هذه قصة المائدة التى سميت هذه السورة الكريمة باسمها ، وقد تسمى السورة فى القرآن الكريم بأعجب ما فيها ، كسورة البقرة إذ لها شأن عجيب ، وهذه السورة سميت بالمائدة أيضا لأن المائدة آية من آيات الله تعالى ، وقد يراد بالمائدة الخوان الذى عليه الطعام ، وقد تطلق أيضا على الطعام نفسه ، لكن الذى يجب الوقوف عنده كثيراً كيف يقول الحواريون وهم الأصحاب الخلص لنبيهم عيسى ﴿ **هل يستطيع ربك** ﴾ وهو سؤال خطير خاصة وأن الله قد أجرى على يدى المسيح من المعجزات ما يملأ النفس يقيناً وصدقاً وإيمانا وإذعانا لقدرة الله تعالى وعظمته فإذا كان هذا قد صدر من الحواريين ، فما بالنا بغيرهم .

---

(١) الآية ٩١ من سورة النمل .

(٢) الآية ١٣١ من سورة البقرة .

(٣) الآية ١٠١ من سورة يوسف .

(٤) الآية ١٣٣ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٤٤ من سورة المائدة .

(٦) الاية ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

من هنا فقد أعمل العلماء عقولهم فى تخريج هذه الآية مستظلين بظل الشرع واقفين عند حدود النص ، فقالوا فى تفسير هذا المشهد ، قال العلماء : واذكر يا محمد وقت قول الحواريين لعيسى ابن مريم والمراد فى مثل هذا التركيب ذكر ما حصل فى الوقت لانفس الوقت . قال الحواريون وهم المؤمنون الخلَّص ردا على عيسى حين قال : ﴿ من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ ، ومع هذا قالوا : ﴿ **هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء** ﴾ .

وهذا سؤال لا يليق بهم قطعاً ولذا خرجه العلماء على وجوه احسنها أن يستطيع بمعنى يطيع كاستجاب بمعنى أجاب ، أو المعنى : هل تستطيع أمر ربك ، أى سؤاله ، وقيل إنه سؤال عن الاستطاعة على حسب الحكمة الإلهية ، أى هل ينافى الحكمة إنزال المائدة أم لا ؟ فإن ما ينافى الحكمة لا يقع قطعاً وإن كان ممكنا .

ولذا قالوا معتذرين عن إيراد السؤال بهذه الصورة نريد أن نأكل منها ، فنحن فى حاجة إليها ، ونحن إذا أكلنا تطمئن قلوبنا وتهدأ نفوسنا ﴿ ونعلم أن قد صدقتنا ﴾ فى أن الله تعالى أرسلك نبياً واختارنا أعوانا لك ، وقد رضى عنا بإجابته سؤالنا .

﴿ **ونكون عليها من الشاهدين** ﴾ لله بالوحدانية ولك بالرسالة والنبوة ، إذ هذه كالدليل على ذلك .

قال عيسى ابن مريم يا ربنا يا مالك أمرنا ومتولى شئوننا أنزل علينا مائدة من السماء يراها هؤلاء وتكون لنا معشر المؤمنين مصدر فرح وسرور ويوم نزولها نتخذه عيدا نجتمع فيه للعبادة والشكر ويعود علينا كل عام باليمن والإقبال لأولنا وجودا وآخرنا كذلك وتكون آية منك ودلالة وحجة ترشد القوم إلى صحة دعوتى وصدق رسالتى ، وارزقنا ما به نقيم أودنا ونغذى أجسامنا وعقولنا فأنت خير الرازقين ، ترزق من تشاء بغير حساب .

قال الله تعالى : ﴿ **إنى منزلها عليكم** ﴾ وقد نزلت ، إذ وعده الحق وقوله الصدق ، فمن يكفر بعد نزول هذه الآية المقترحة فإنى أعذبه عذاباً شديداً لا أعذب هذا العذاب لأحد من العالمين ، إذ اقترح آية بعد الآيات الكثيرة التى نزلت كهذه المائدة آية يشترك فى إدراكها جميع الحواس ، ثم بعد هذا يكفر بها ويستهزئ ، فإنه يستحق من الله عذابا دونه عذاب الكفار جميعاً .

وورد فى قصة المائدة روايات كثيرة عن شكلها ولونها وطعامها ، والظاهر والله أعلم أنه كان لخيال الإسرائيليين فيها نصيب ، ونحن نلتزم حدود القرآن والسنة الصحيحة ، وفقنا الله إلى الصواب .

فى ساحة العدل يوم القيامة

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ

سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

المفردات ﴿ **ما فى نفسى** ﴾ : المراد تعلم سرى ولا أعلم سرك . ﴿ **شهيداً** ﴾ : حفيظا بما أمرتهم . ﴿ **الرقيب** ﴾ : من المراقبة وهى المراعاة والمراد الحافظ لهم والعالم بهم . ﴿ **العزيز** ﴾ : الذى لا يغلبه أحد . ﴿ **الحكيم** ﴾ : المنزه عن العبث،الذى يضع الأمور فى نصابها . ﴿ **صدقهم** ﴾ : الصدق هو مطابقة الخبر للواقع والكذب هو بخلاف ذلك .

هذا مشهد من مشاهد القيامة فى ساحة هى ساحة العدل الإلهية الكبرى ، وفى يوم يجمع الله فيه الرسل ، وقد خص الله تعالى المسيح على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وهو يعلم أنه إمام من أمة التوحيد وأحد الأنبياء الذين عملوا وصبروا وجاهدوا وسماهم الله أولوا العزم من الرسل ، فهو أحد خمسة قال الله فيهم ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾[1] وذكرهم فى قوله : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا ﴾[2] وذكرهم تعالى فى قوله : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾[3] الآية .

إنما خص الله تعالى المسيح بهذا السؤال : ﴿ **أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله** ﴾ ليظهر براءته مما قاله النصارى فيه وفى أمه ، وليكون ذلك إعلانا وبيانا لبطلان ما ادعاه هؤلاء النصارى من افتراء وكذب وبهتان على نبى الله وأمه ، وليكون فى ذلك توبيخ وتقريع وتسفيه لما اعتقدوه ، لذا جاء الجواب من المسيح صريحاً ﴿ قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ﴾ أى أن هذا دليل على أن ما قالوه فى شأنه وشأن أمه لا يمت للحق بأدنى صلة ، بل هو يجافى الحق ويناقضه ، ثم يؤكد المسيح

---

(١) الآية ٣٥ من سورة الأحقاف . (٢) الآية ٧ من سورة الأحزاب . (٣) الآية ١٣ من سورة الشورى .

هذا المعنى بما يفيد طهارة القلب ، وطهارة اللسان ، فيقول : ﴿ **إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك** ﴾ أى أنك تعلم سرى الذى انطوت عليه نفسى ولا أعلم ما فى ذاتك فأنت الذى أحطت بكل شىء علماً وأحصيت كل شىء عدداً علمت ما كان وعلمت ما يكون ، وعلمت ما سيكون وعلمت ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ﴿ **إنك أنت علام الغيوب** ﴾ وكأن سؤالا استشفه المسيح فأجاب عنه كأن سؤالا قيل فيه فماذا قلت لهم إذاً؟ فأجاب عنه ﴿ **ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن أعبدوا الله ربى وربكم** ﴾ وهذا كما قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إلّه إلا إلّه واحد ﴾[١]

﴿ **وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم** ﴾ . أى شاهدا على أفعالهم وأقوالهم مدة وجودى فيهم : ﴿ **فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم** ﴾ المطلع على أفعالهم ، وما تخفى صدورهم وأنت الشهيد على كل شىء الحفيظ على كل فعل .

قوله تعالى : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ ، هذا تفويض وتسليم لله تعالى بالأمر كله إن تعذبهم لما اقترفوه فإنهم عبادك وأنت السيد الأكبر والملك الأعظم الذى بيده ملكوت كل شىء وإن تغفر لهم فإنهم عبادك وأنت القائم على القائم بنفسك فالوجود ملكك والقضاء حكمتك وكل الكائنات طوع إرادتك إن تعذبهم فبعزتك التى لا تقهر وإن تغفر لهم فبحكمتك التى تنزهت عن العبث فأنت الضار النافع الخافض الرافع العزيز الحكيم المحيى المميت المعز المذل القاهر القادر المقدم المؤخر الأول والآخر الظاهر والباطن .

وهذه الآية تتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل ، فإنه الفعال لما يشاء الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ويتضمن التبرى من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله ، وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب ، وقد ورد فى الحديث أن النبى ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددها .

روى الإمام أحمد بإسناده عن أبى ذر قال صلى النبى ﷺ ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك** ﴾ الآية ، فلما أصبح قلت : يا رسول الله مازلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها ؟ قال : ﴿ إنى سألت ربى عز وجل الشفاعة لأمتى فأعطانيها وهى نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً ﴾[٢] .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ تلا قول عيسى : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ فرفع يديه فقال : (**اللهم أمتى**) وبكى فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فاسأله ما يبكيه ؟ فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال

(١) الآيتان ٧٢ ، ٧٣ من سورة المائدة .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٥ : ١٤٩) .

وهو أعلم فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك[١] .

وعن حذيفة بن اليمان قال : « غاب عنا رسول الله ﷺ يوما فلم يخرج حتى ظننا أن لن يخرج ، فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نفسه قد قبضت فيها ، فلما رفع رأسه قال : (إن ربى عز وجل استشارنى فى أمتى ماذا أفعل بهم ؟ فقلت : ما شئت أى رب ، هم خلقك وعبادك . فاستشارنى الثانية فقلت له كذلك فقال لى : لا أخزيك فى أمتك يا محمد وبشرنى أن أول من يدخل الجنة من أمتى معى سبعون ألفا ، مع كل ألف سبعون ألفا ، ليس عليهم حساب ، ثم أرسل إلى فقال : ادع تجب ، وسل تعط . فقلت لرسوله : أو معطى ربى سؤلى ؟ فقال : ما أرسلنى إليك إلا ليعطيك ، ولقد أعطانى ربى ولا فخر ، وغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر ، وأنا أمشى حياً صحيحاً ، وأعطانى أن لا تجوع أمتى ولا تغلب ، وأعطانى الكوثر ، وهو نهر فى الجنة يسيل فى حوض ، وأعطانى العز والنصر والرعب يسعى بين يدى أمتى شهراً ، وأعطانى أنى أول الأنبياء يدخل الجنة ، وطيب لى ولأمتى الغنيمة ، وأحل لنا كثيراً مما شدد على من قبلنا ولم يجعل علينا فى الدين من حرج) »[٢] .

وعن ابن عباس قال : « قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : (يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا) ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة ابراهيم ألا وإنه يجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابى فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول : كما قال العبد الصالح : ﴿ **وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد** ﴾ * ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ ، فيقال إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم »[٣] رواه البخارى . قوله تعالى : ﴿ **هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم** ﴾ الإشارة هنا إلى يوم القيامة والصدق منجاة ، والإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك . وأول درجات الصدق صدق اليقين مع الله ، حتى فسر بعضهم الصدق هنا بالتوحيد . وهذه الآية دليل على أن سؤال الله للمسيح سيكون يوم القيامة ولا يقال لما عبر بالماضى بقوله : ﴿ **وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم** ﴾ ، لأن الحكمة فى هذا التعبير إفادة تحقق الوقوع كما فى قوله جل شأنه إخباراً عن القيامة : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾[٤] وكما قال جل شأنه : ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾[٥]

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان (٣٤٦) .

(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٥٣) . والبخارى فى التوحيد (٣٣) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٥٩) .

(٣) أخرجه البخارى فى الأنبياء (٨ ، ٤٨) وفى تفسير سورة ٥ (١٤) وفى الرقاق (٤٥) وأخرجه مسلم فى الجنة (٥٦ ، ٥٩) والترمذى فى القيامة (٣) وفى تفسير سورة ٨ (٢) وأخرجه النسائى فى الجنائز (١١٨ ، ١١٩) وابن ماجه فى الزهد (٣٣) . والدارمى فى الرقاق (٨٠ ، ٨٢) والإمام أحمد فى (١ : ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٥٣ ، ٣٩٨) وفى (٦ : ٥٣ ، ٩٠) .

(٤) الآية ١ من سورة النحل .

(٥) الآية ١٦٦ من سورة البقرة .

قوله تعالى : ﴿ **لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها لا يبغون عنها حِوَلا ﴾[١] وكقوله جل شأنه : ﴿ لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾[٢] ﴿ **رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم** ﴾ .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (يتجلى لهم الرب جل جلاله فيقول سلونى سلونى أعطكم قال : فيسألونه الرضا فيقول رضاى أحلكم دارى ، وأنالكم كرامتى ، فسلونى أعطكم فيسألونه الرضا قال : فيشهدهم أنه قد رضى عنهم سبحانه وتعالى) .

رضاك خير من الدنيا ومـا فيها ... يا مالك النـفس قاصيها ودانيها
فليس للنـفس آمـال تحققهـا ... سوى رضاك فذا أقصى أمـانيها
فنظـرة منك يا سؤلى ويـا أملى ... خير إلـىَّ من الدنيـا ومـا فيها

قوله تعالى : ﴿ لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير ﴾ ، هذه الآية فيها فصل القضاء بعد براءة المسيح عليه السلام مما قاله أهل الضلال ، أجابه الله تعالى بقوله ﴿ **هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم** ﴾ ، ثم جاءت هذه الآية تقضى بالحق ، فالذى يملك الكون كله من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه هو الله مالك الملك وملك الملوك لا شريك له فى ذاته ولا صفاته ولا أفعاله ، فالمسيح عبد من عباده وكل الكائنات طوع إرادته .

سبحـانك اللهـم أنت الواحـد ... كل الوجـود على وجـودك شاهـد
يا حى يا قيـوم أنت المرتجى ... وإلى علاك عنا الجبين الساجـد

﴿ **وهو على كل شىء قدير** ﴾ لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض ، علا فقهر وبطن فخبر وملك فقدر .

يا من له عنت الوجوه بأسرها ... رهباً وكل الكائنـات توحـد
أنت الإله الواحـد الحق الـذى ... كل القلـوب له تقر وتشهـد

(١) الآية ١٠٨ من سورة الكهف .
(٢) الآية ٤٨ من سورة الحجر .

سورة الأنعام

هذه السورة مكية سوى ست آيات منها : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره** ﴾ إلى آخر ثلاث آيات ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم** ﴾ إلى آخر ثلاث آيات ، هذه الآيات نزلت بالمدينة فى مرتين وباق السورة نزلت بمكة دفعة واحدة .

عدد آياتها : مائة وخمس وستون آية عند الكوفيين ، وست عند البصريين والشاميين ، وسبع عند الحجازيين .

وعدد كلماتها : ثلاثة آلاف واثنتان وخمسون كلمة ، وعدد حروفها اثنا عشر ألفا ومائتان وأربعون .

ولهذه السورة اسمان : سورة الأنعام لما فيها من ذكر الأنعام مكرراً ﴿ **وقالوا هذه أنعام وحرث** ﴾ ﴿ **ومن الأنعام حمولة وفرشاً** ﴾ ﴿ **وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها** ﴾ وسورة الحجة لأنها مقصورة على ذكر حجة النبوة وأيضاً تكررت فيه الحجة ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم** ﴾ ﴿ **قل فلله الحجة البالغة** ﴾ .

مقصود السورة على سبيل الإجمال

ما اشتمل على ذكره : من خلق السموات والأرض وتقدير النور والظلمة ، وقضاء آجال الخلق ، والرد على منكرى النبوة ، وذكر إنكار الكفار فى القيامة ، وتمنيهم الرجوع إلى الدنيا ، وذكر تسلية الرسول ﷺ عن تكذيب المكذبين ، وإلزام الحجة على الكفار ، والنهى عن إيذاء الفقراء ، واستعجال الكفار بالعذاب ، واختصاص الحق تعالى بالعلم المغيب ، وقهره وغلبته على المخلوقات ، والنهى عن مجالسة الناقضين ومؤانستهم ، وإثبات البعث والقيامة ، وولادة الخليل عليه السلام وعرض الملكوت عليه ، واستدلاله حال خروجه من الغار ، ووقوع نظره على الكواكب والشمس والقمر ، ومناظرة قومه ، وشكاية أهل الكتاب وذكرهم حالة النزع ، وفى القيامة وإظهار برهان التوحيد ببيان البدائع والصنائع ، والأمر بالإعراض عن المشركين ، والنهى عن سب الأصنام وعبادتها ، ومبالغة الكفار فى الطغيان ، والنهى عن أكل ذبائح الكفار ، ومناظرة الكفار ومحاولتهم فى القيامة ، وبيان شرع عمر بن لحى فى الأنعام بالحلال والحرام ، وتفصيل محرمات الشريعة الإسلامية ، ومحكمات آيات القرآن والأوامر والنواهى من قوله تعالى ﴿ **قل تعالوا** ﴾ إلى آخر ثلاث آيات ، وظهور أمارات القيامة وعلاماتها فى الزمن الأخير ، وذكر جزاء الإحسان الواحد بعشرة ، وشكر الرسول على تبريه من الشرك والمشركين ورجوعه إلى الحق فى محياه ومماته وذكر خلافة الخلائق وتفاوت درجاتهم وختم السورة بذكر سرعة عقوبة الله لمستحقيها ورحمته ومغفرته لمستوجبيها بقوله ﴿ **إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم** ﴾ .

الآيات المتشابهات

فى هذه السورة الكريمة آيات تشابهت مع آيات فى سور أخرى ، وقد ذكرها صاحب البصائر فقال :

قوله تعالى : ﴿ **فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء** ﴾ ، وفى الشعراء ﴿ فقد كذبوا فسيأتيهم ﴾ لأن سورة الأنعام متقدمة فقيد التكذيب بقوله ﴿ **بالحق لما جاءهم** ﴾ ثم قال : ﴿ **فسوف يأتيهم** ﴾ على التمام .

وذكر فى الشعراء ﴿ فقد كذبوا ﴾ مطلقاً لأن تقييده فى هذه السورة يدل عليه ثم اقتصر على السين هناك بدل ﴿ فسوف ﴾ ليتفق اللفظان فيه على الاختصار .

قوله : ﴿ **ألم يرواكم أهلكنا** ﴾ فى بعض المواضع بغير واو كما فى هذه السورة وفى بعضها بالواو وفى بعضها بالفاء هذه الكلمة تأتى فى القرآن على وجهين : أحدهما متصل بما كان الاعتبار فيه بالمشاهدة ، فذكره بالهمز والواو ، ليدل الهمز على الاستفهام والواو على عطف جملة على جملة قبلها ، وكذا الفاء ، ولكنها أشد اتصالاً بما قبلها ، والثانى متصل بما الاعتبار فيها بالاستدلال ، فاقتصر على الهمز دون الواو والفاء ليجرى مجرى الاستئناف ، ولا ينقض هذا الأصل قوله تعالى : ﴿ **ألم يروا إلى الطير** ﴾ فى النحل ، لاتصالها بقوله : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم** ﴾ وسبيله الاعتبار بالاستدلال فبنى عليه : ﴿ ألم يروا إلى الطير ﴾ .

قوله : ﴿ **قل سيروا فى الأرض ثم انظروا** ﴾ فى هذه السورة فحسب وفى غيرها : ﴿ **سيروا فى الأرض فانظروا** ﴾ لأن ثم للتراخى والفاء للتعقيب . وفى هذه السورة تقدم ذكر القرون فى قوله : ﴿ **كم أهلكنا من قبلهم من قرن** ﴾ ثم قال : ﴿ **وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين** ﴾ . فأمروا باستقراء الديار وتأمل الآثار وفيها كثرة فيقع ذلك ﴿ **فى** ﴾ سير بعد سير وزمان بعد زمان فخصت بثم الدالة على التراخى بعد الفعلين ليعلم أن السير مأمور به على حدة ولم يتقدم فى سائر السور مثلها فخصت بالفاء الدالة على التعقيب قوله : ﴿ **الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون** ﴾ ليس بتكرار لأن الأول فى حق الكفار (والثانى) فى حق أهل الكتاب . قوله ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ . وقال فى يونس ﴿ **فمن** ﴾ بالفاء وختم الآية بقوله ﴿ إنه لا يفلح المجرمون ﴾ لأن الآيات التى تقدمت فى هذه السورة عطف بعضها على بعض بالواو .

وهو قوله : ﴿ **وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم بهومن بلغ.. وإننى برىء** ﴾ **ثم قال** : ﴿ **ومن أظلم** ﴾ وختم الآية بقوله : ﴿ **الظالمون** ﴾ ليكون آخر الآية موافقاً للأول . وأما فى سورة يونس فالآيات التى تقدمت عطف بعضها على بعض بالفاء وهو قوله : ﴿ فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ﴾ ثم قال : ﴿ فمن أظلم ﴾ (بالفاء) وختم الآية بقوله : ﴿ المجرمون ﴾ أيضاً موافقة لما قبلها وهو قوله :

﴿ كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾ فوصفهم بأنهم مجرمون : وقال بعده ﴿ ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم ﴾ فختم الآية بقوله : ﴿ المجرمون ﴾ ليعلم أن سبيل هؤلاء سبيل من تقدمهم .

قوله تعالى : ﴿ **ومنهم من يستمع إليك** ﴾ وفى يونس ﴿ يستمعون ﴾ لأن ما فى هذه السورة نزل فى أبى سفيان والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة وأمية وأبى بن خلف فلم يكثروا ككثرةقوله ﴿ من ﴾ فى يونس لأن المراد بهم جميع الكفار فحمل ههنا مرة على لفظ ﴿ من ﴾ فوُحِّد لقلتهم ومرة على المعنى فجمع لأنهم وإن قلوا جماعة وجمع ما فى يونس ليوافق اللفظ المعنى وأما قوله فى يونس ﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ فسيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على النار** ﴾ ، ثم أعاد فقال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على ربهم** ﴾ لأنهم أنكروا النار فى القيامة وأنكروا الجزاء والنكال فقال فى الأولى : ﴿ **إذ وقفوا على النار** ﴾ ، وفى الثانية : ﴿ **على ربهم** ﴾ أى جزاء ربهم ونكاله فى النار وختم بقوله : ﴿ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين** ﴾ ليس غيره وفى غيرها بزيادة : ﴿ نموت ونحيا ﴾ لأن ما فى هذه السورة عند كثير من المفسرين متصل بقوله : ﴿ **ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين** ﴾ ولم يقولوا ذلك بخلاف ما فى سائر السور ، فإنهم قالوا ذلك فحكى الله تعالى عنهم قوله تعالى : ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو** ﴾ قدم اللعب على اللهو فى موضعين هنا وكذلك فى القتال والحديد ، وقدم اللهو على اللعب فى الأعراف والعنكبوت وإنما قدم اللعب فى الأكثر لأن اللعب زمانه الصبا واللهو زمانه الشباب وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب يبينه ما ذكر فى الحديد : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ﴾ . كلعب الصبيان ﴿ ولهو ﴾ كلهو الشبان ﴿ وزينة ﴾ كزينة النسوان ﴿ وتفاخر ﴾ كتفاخر الإخوان ﴿ وتكاثر ﴾ كتكاثر السلطان . وقريب من هذا فى تقديم لفظ اللعب على اللهو قوله : ﴿ وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ﴾ ، وقدم اللهو فى الأعراف لأن ذلك فى القيامة فذكر على ترتيب ما انقضى وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحالتين ، وأما العنكبوت فالمراد بذكرها زمان الدنيا وأنه سريع الانقضاء قليل البقاء ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان ﴾ أى الحياة التى لا بداية لها ولا نهاية لها فبدأ بذكر اللهو لأنه فى زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب وهو زمان الصبا .

قوله تعالى : ﴿ **لعلهم يتضرعون** ﴾ فى هذه السورة ، وفى الأعراف : ﴿ يضرعون ﴾ بالإدغام لأن ههنا وافق ما بعده وهو قوله : ﴿ جاءهم بأسنا تضرعوا ﴾ ومستقبل تضرعوا يتضرعون لا غير .

قوله تعالى : ﴿ **انظر كيف نصرف الآيات** ﴾ مكرر لأن التقدير : انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون عنها فلا نعرض عنهم بل نكررها لعلهم يفقهون .

قوله تعالى : ﴿ **قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك** ﴾ فكرر ﴿ لكم ﴾ وقال فى هود : ﴿ ولا أقول إنى ملك ﴾ فلم يكرر ﴿ لكم ﴾ لأن فى هود تقدم ﴿ إنى لكم نذير ﴾ وعقبه ﴿ وما نرى لكم ﴾ وبعده ﴿ أن أنصح لكم ﴾ فلما تكرر ﴿ لكم ﴾ فى القصة أربع مرات اكتفى بذلك .

قوله : ﴿ **إن هو إلا ذكرى للعالمين** ﴾ فى هذه السورة وفى سورة يوسف : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ منوناً لأن فى هذه السورة تقدم ﴿ بعد الذكرى ﴾ و﴿ لكن ذكرى ﴾ فكان ﴿ الذكرى ﴾ أليق بها .

قوله تعالى : ﴿ **يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى** ﴾ فى هذه السورة ، وفى آل عمران : ﴿ وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ﴾ ، وكذلك الروم ويونس : ﴿ يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ﴾ ، لأن (ما) فى هذه السورة وقعت بين أسماء الفاعلين وهو فالق الحب فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً واسم الفاعل يشبه الاسم من وجه فيدخله الألف واللام والتنوين والجر (من وجه) وغير ذلك ويشبه الفعل من وجه فيعمل عمل الفعل ولا يثنى (ولا) يجمع إذا عمل وغير ذلك ولهذا جاز العطف عليه بالاسم نحو قوله : ﴿ الصابرين والصادقين ﴾ وجاز العطف عليه بالفعل نحو قوله تعالى : ﴿ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ ونحو قوله تعالى : ﴿ سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ﴾ فلما وقع بينهما ذكر ﴿ يخرج الحى من الميت ﴾ بلفظ الفعل و﴿ مخرج الميت من الحى ﴾ بلفظ الاسم عملا بالشبهين وأخر لفظ الاسم لأن الواقع بعده اسمان والمتقدم اسم واحد بخلاف ما فى آل عمران لأن ما قبله وما بعده أفعال وكذلك فى يونس والروم قبله وبعده أفعال : فتأمل فيه فإنه من معجزات القرآن .

قوله تعالى : ﴿ **قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون** ﴾ ثم قال : ﴿ **قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون** ﴾ وقال بعدهما : ﴿ **إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ ، لأن من أحاط علماً بما فى الآية الأولى صار عالماً لأنه أشرف العلوم فختم بقوله : ﴿ **يعلمون** ﴾ والآية الثانية مشتملة على ما يستدعى تأملا وتدبراً ، والفقه علم يحصل بالتفكر والتدبر ولهذا لا يوصف به الله سبحانه وتعالى ، فختم الآية بقوله تعالى : ﴿ **يفقهون** ﴾ ومن أقر بما فى الآية الثالثة صار مؤمناً حقاً فختم الآية بقوله : ﴿ يؤمنون ﴾ وقوله : ﴿ **ذلكم الآيات** ﴾ فى هذه السورة لظهور الجماعات وظهور الآيات (عم جميع) الخطاب وجمع الآيات قوله : ﴿ **أنشأكم** ﴾ وفى غيرها : ﴿ خلقكم ﴾ لموافقة ما قبلها وهو ﴿ **أنشأنا من بعدهم** ﴾ وما بعدها : ﴿ **وهو الذى أنشأ جنات معروشات** ﴾ ، قوله ﴿ مشتبهاً وغير متشابه ﴾ وفى الآية الأخرى : ﴿ متشابها وغير متشابه ﴾ لأن أكثر ما جاء فى القرآن من هاتين الكلمتين جاء بلفظ التشابه نحو قوله : ﴿ وأتوا به متشابهاً ﴾ ﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ ، ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ ، ﴿ وأخر متشابهات ﴾ ، فجاء ، ﴿ مشتبهاً وغير متشابه ﴾ فى الآية الأولى و ﴿ متشابهاً وغير متشابه ﴾ فى الآية

الأخرى على تلك القاعدة ثم كان لقوله ﴿ تشابه ﴾ معنيان : أحدهما التبس والثانى تساوى وما فى البقرة معناه : التبس فحسب فبين بقوله ﴿ مشتبهاً ﴾ ومعناه : ملتبساً أن ما بعده من باب الالتباس أيضا لا من باب التساوى والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ **ذلكم الله ربكم لا إلّه إلا هو خالق كل شىء** ﴾ فى هذه السورة ، وفى المؤمن : ﴿ خالق كل شىء لا إلّه إلا هو ﴾ لأن فيها قبله ذكر الشركاء والبنين والبنات فدفع قول قائله بقوله : ﴿ **لا إلّه إلا هو** ﴾ ثم قال : ﴿ **خالق كل شىء** ﴾ وفى المؤمن قبله ذكر الخلق وهو : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ لا على نفى الشريك فقدم فى كل سورة ما يقتضيه ما قبله من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ **ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون** ﴾ وقال فى الآية الأخرى من هذه السورة ﴿ **ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون** ﴾ لأن قوله تعالى : ﴿ **ولو شاء ربك** ﴾ وقع عقيب آيات فيها ذكر الرب مرات وهما : ﴿ جاءكم بصائر من ربكم ﴾ الآيات : فختمها بذكر الرب ليوافق (آخرها أولها) .

قوله تعالى ﴿ **ولو شاء الله ما فعلوه** ﴾ وقع بعد قوله : ﴿ **وجعلوا لله مما ذرأ** ﴾ فختم بما بدأ .

قوله تعالى : ﴿ **سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء** ﴾ وقال فى النحل : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء ﴾ فزاد ﴿ من دونه ﴾ مرتين وزاد ﴿ نحن ﴾ لأن لفظ الإشراك يدل على إثبات شريك لا يجوز إثباته ودل على تحريم أشياء وتحليل أشياء من دون الله فلم يحتج إلى لفظ ﴿ من دونه ﴾ بخلاف لفظ العبادة فإنها غير مستنكرة وإنما المستنكرة عبادة شىء مع الله سبحانه وتعالى ولا يدل على تحريم شىء مما دل عليه (أشرك) فلم يكن بد من تقييده بقوله تعالى ﴿ من دونه ﴾ ولما حذف ﴿ من دونه ﴾ من الآية مرتين حذف معه ﴿ نحن ﴾ لتطرد الآية فى حكم التخفيف .

قوله تعالى : ﴿ **نحن نرزقكم وإياهم** ﴾ وفى سبحان : ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ على الضد لأن التقدير : من إملاق (بكم) نحن نرزقكم وإياهم وفى سبحان : ﴿ خشية إملاق ﴾ يقع بهم (نحن نرزقكم وإياكم) .

قوله تعالى : ﴿ **ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون** ﴾ وفى الثانية : ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾ وفى الثالثة : ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ لأن الآية الأولى مشتملة على خمسة أشياء كلها عظام جسام وكانت الوصية بها من أبلغ الوصايا ، فختم الآية بما فى الإنسان من أشرف السجايا وهو العقل الذى امتاز به الإنسان عن سائر الحيوان ، والآية الثانية مشتملة على خمسة أشياء يقبح تعاطيها وارتكابها ، وكانت الوصية بها تجرى مجرى الزجر والوعظ فختم الآية بقوله : ﴿ تذكرون ﴾ أى تتعظون بمواعظ الله ، والآية الثالثة مشتملة على ذكر الصراط المستقيم والتحريض على اتباعه واجتناب متافيه ، فختم الآية بالتقوى التى هى ملاك العمل وخير الزاد .

قوله تعالى : ﴿ **جعلكم خلائف الأرض** ﴾ فى هذه السورة ، وفى يونس والملائكة : ﴿ جعلكم خلائف فى الأرض ﴾ لأن فى هذه العشر الآيات تكرر ذكر المخاطبين مرات فعرفهم بالإضافة وقد جاء فى السورتين على الأصل وهو ﴿ جاعل فى الأرض خليفة ﴾ ﴿ وجعلكم مستخلفين فيه ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم** ﴾ ، وقال فى الأعراف : ﴿ إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ لأن ما فى هذه السورة وقع بعد قوله : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ .

وقوله : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ﴾ فقيد قوله : ﴿ غفور رحيم ﴾ باللام ترجيحاً للغفران على العقاب ووقع ما فى الأعراف بعد قوله تعالى : ﴿ وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ فقيد العقاب باللام لما تقدم من الكلام وقيد المغفرة أيضاً بها رحمة منه للعباد لئلا يترجح جانب الخوف على الرجاء وقدم ﴿ سريع العقاب ﴾ فى الآيتين مراعاة لفواصل الآيات .

مناسبتها لسورة المائدة

فى المائدة محاجة أهل الكتاب ، وفى هذه محاجة المشركين ، والمائدة ذكرت المحرمات بالتفصيل لأنها من آخر القرآن نزولاً ، والأنعام ذكرت ذلك جملة .

من دلائل التوحيد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

المفردات ﴿ **الحمد** ﴾ : هو الثناء الحسن والذكر الجميل . ﴿ **خلق** ﴾ الخلق فى اللغة التقدير ، أى جعل الشيء ، بمقدار معين على حسب علمه ، وفى أبى السعود : الجعل الإنشاء والإبداع كالخلق ، غير أن الخلق مختص بالإنشاء التكوينى ، وفيه معنى التقدير والتسوية ، والجعل عام للإنشاء كما قال تعالى : ﴿ **وجعل الظلمات والنور** ﴾ ، وللتشريع والتقنين كما مر فى قوله ﴿ **جعل الله الكعبة البيت الحرام** ﴾[1] ويختص الجعل بأن فيه معنى التضمين كإنشاء منشأ من منشىء . ﴿ **يعدلون** ﴾ : يجعلون له عدلا مساوياً وشريكاً له منافساً . ﴿ **أجلا** ﴾ الأجل المدة المضروبة للشيء ، وقضى أجلا بمعنى حكم به وضربه . ﴿ **تمترون** ﴾ : تشكون فى دلائل البعث والتوحيد .

(١) الآية ٩٧ من سورة المائدة .

أثنى سبحانه وتعالى على نفسه ، بما علم به عباده الثناء عليه ، فالحمد لله ، وكل ثناء ثابت له ، إذ هو متصف بكل كمال ومنزه عن كل نقص ، وثابت له الخلق والإيجاد والإنشاء والإبداع ، وقد وصف سبحانه وتعالى هنا بصفتين من موجبات الحمد والثناء ، وهما خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور .

أما خلق السماوات والأرض ، وما فيهما من العوالم والنظام والتقدير والإحكام فشيء يعترف به المشركون والمؤمنون على السواء ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾[1] فهذه السماوات وما فيها من نجوم وأفلاك وشموس وكواكب ، كل له مدار وله شروق وأفول ، بعضها مضيء وبعضها له نور ، وهذا الهواء المحيط بالأرض ، وهذا الأثير الذى ينقل الصوت ، أليس هذا يدل على الوحدة والكمال ؟ .

﴿ **الحمد لله الذى خلق السماوات** ﴾ وما فيها وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى . أما الأرض ، وما أدراك ما هى ، كوكب سيار وفلك دوار ، **كانتا رتقاً ففتقناهما** ، وهى معلقة فى الفضاء ، وتدور حول الشمس وعليها الجبال الرواسى وفيها الأنهار والبحار وعليها نسير وفيها نعيش ، وهى كروية ولا يقع الماء من جوانبها ، ولا يتدفق عند قطبيها ، من الذى خلق هذا وقدره ؟ إنه هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد .

الحمد لله قد جعل الظلمات والنور ، وهل الظلمات والنور من المحسوسات أم هما من المعقولات أم اللفظ عام للجميع ؟

والقرآن الكريم جرى على جمع الظلمات وإفراد النور ، لأن ظلمات الشرك والكفر أسبابها وأشكالها وألوانها مختلفة وكثيرة ، أما نور الحق والهدى فطريقها واحد ، وللظلمات الحسية أسباب ، لأن الظلمة تحصل بحجب النور بالجسم والأجسام مختلفة وكثيرة ، وللنور مصدر واحد وإن اختلف قوة وضعفا ، وشكلا وصورة .

﴿ **ثم الذين كفروا** ﴾ بعد هذا كله ﴿ **يعدلون** ﴾ بالوحدانية الشرك ، ويجعلون لمن خلق وأوجد وأنشأ وأبدع ، شريكا مساوياً له ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾[2] ، أبعد هذا يكون شك فى وحدانية الله وكماله ؟

ثم استأنف القرآن كلاما خاطب به المشركين والمعاندين ، مذكراً لهم بما هو ألصق بهم ، وهو خلقهم من طين ، أو من ماء مهين ، فهذا أبونا آدم خلق من طين ، وها نحن أولاء نتكون من منى وبويضة ، وهما من دم الذكر والأنثى ، والدم من الغذاء من الحيوان والنبات ، وهما يرجعان إلى الأرض ، وقيل المعنى خلق أباكم آدم من طين .

---

(١) الآية ٢٥ من سورة لقمان .
(٢) الآية ٥ من سورة الكهف .

ثم ضرب لنا أجلا نعيش به فى الدنيا إلى وقت محدود ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[1] وهناك أجل آخر مسمى عنده هو أجل الدنيا وانتهاؤها ، ومصيرها إلى الحياة الآخرة لا يعلم به إلا هو ، ولم يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبياً مرسلا . ﴿ ويسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ .[2]

ثم أنتم بعد هذا تمترون وتشكون فى خلقكم مرة ثانية ، أى فى البعث ، فالذى خلق الجنين فى بطن أمه من ماء مهين وجعله يتنفس ، ولو تنفس بالهواء العادى لمات ، وجعله يتغذى بدم الحيض ، وهو الدم القذر القاتل ، أليست هذه حياة عجيبة ؟

حقاً إنها لعجيبة ، والذى أحيانا على هذا الوضع قادر على إحياء الموتى يوم القيامة : ﴿ **وهو الله فى السماوات وفى الأرض** ﴾ نعم هو الله الموصوف بكل كمال ، وخالق السماء والأرض وما فيهما ، هذه حقائق معروفة ، وأمر شهد به الخلق جميعا ، وفى ابن كثير معنى هذه الآية المدعو الله فى السماوات وفى الأرض أى يعبده ويوحده ويقر له بالألوهية من فى السماوات ومن فى الأرض ويسمونه الله ويدعونه رغباً ورهبا إلا من كفر ، وهذه الآية كقوله تعالى :﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ﴾[3] أى هو إله من فى السماء وإله من فى الأرض ، وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ **يعلم سركم وجهركم** ﴾ خبر بعد خبر وصفة أخرى ، وقيل المعنى هو الله يعلم سركم وجهركم فى السماوات والأرض ويعلم ما تكسبون فهو سبحانه العليم الخبير .

سبب كفرهم وعاقبته

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾

المفردات ﴿ **معرضين**﴾ : الإعراض التولى عن الشىء .. ﴿ **بالحق** ﴾ : أى بالأمر الثابت المتحقق فى نفسه والمراد به هنا الدين . ﴿ **أنباء** ﴾ جمع نبأ وهو الخبر المهم . ﴿ **من قرن** ﴾ القرن من الناس القوم المقترنون فى زمن واحد ، ومدته من الزمن مائة سنة وقيل غير ذلك . ﴿ **السماء** ﴾ : المراد المطر . ﴿ **مدرارا** ﴾ مبالغاً فيه فى الكثرة والغزارة .

ما تقدم من الآيات كان فى إثبات الوحدانية ، وكمال الربوبية لله سبحانه وتعالى وإثبات البعث وأن

(١) الآية ٣٤ من سورة الأعراف . (٢) الآية ١٨٧ من سورة الأعراف . (٣) الآية ٨٤ من سورة الزخرف .

الله الذى يعترفون له بخلق السماوات والأرض هو الاله المعبود بحق ، المحيط علماً بكل شيء لا إله إلا هو ... ولكنهم أشركوا بالله وكذبوا رسله ولم يؤمنوا بهذه الآيات الكونية ولا الآيات القرآنية التى تناديهم ليصدقوا بها ويصدقوا برسولها ﷺ وهذه الآيات تشير إلى سبب التكذيب والكفر .

وما تأتيهم أى آية من آيات ربهم الذى رباهم ، وتعهدهم فى حالتى الضعف والقوة وكفل لهم الرزق ، وآتاهم من كل شيء ، وخلق لهم جميع ما فى الأرض ﴿ **وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين** ﴾ ﴿ وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ من سورة الأنبياء .

فهم لم ينظروا نظرة اعتبار وتأمل ، ولم يجردوا أنفسهم من قيد التقليد وحمى العصبية ، وحماقة الجاهلية ، فهم إذا أتتهم آية أعرضوا وقالوا سحر مستمر ﴿ وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾[1] .

فبسبب هذا قد كذبوا بالحق والدين الصدق ، الذى دعا إليه القرآن الكريم ، وجاء به النبى الأمين ، من الدعوة إلى العقائد الصحيحة ، والآداب الكريمة والمثل العليا ، ولكون الإعراض طبيعة فيهم وغريزة ، كذبوا بسرعة فائقة عقب الدعوة مباشرة وكان عاقبة أمرهم خسرانا ، وسوف يأتيهم أخبار وأحوال الذى كذبوا به وهو القرآن ، سيآتيهم نبأ هذا التكذيب وعاقبته ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾[2] ، وقد أتى حيث هزموا بغزوة بدر ، وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفوجا ، هذا فى الدنيا .

وقال الرازى فى تفسيره : كان حال هؤلاء فى كفرهم على ثلاث مراتب : إعراض عن التأمل ، ثم تكذيب ، وثالثة الأثافى استهزاء بآيات الله وكلامه ، عجبا لهؤلاء . ألم يعلموا نبأ من كان قبلهم ، وخبرهم مع رسلهم وكيف كان مآلهم ؟ كم أهلكنا من قبلهم من قوم أعطيناهم ما لم نعط لكم ، ومكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وأعطيناهم من أسباب الاستقلال والملك والغنى ما لم نعط لكم ، أفكان هذا كله مانعا لنا من إنزال العقوبة الصارمة بهم لما أعرضوا وكذبوا واستهزءوا ؟ ﴿ **أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر** ﴾[3] لا هذا ولا ذاك .

نعم كان قوم عاد وثمود ، وقوم فرعون ، وإخوان لوط ، على جانب كبير من رغد العيش وسعة السلطان ، متعناهم ووسعنا لهم فى الرزق ، وأرسلنا عليهم المطر غزيراً ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحت بيوتهم ، ووسط مزارعهم ، فكما كفروا بأنعم الله أذقناهم العذاب الشديد ، وأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قوماً آخرين ، وجيلا آخر أدرك ما حل بغيره فسار على غير منواله ﴿ إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدىء ويعيد * وهو الغفور الودود ﴾[4] والمسلمون اليوم أخوف ما أخاف عليهم هذا

(١) الآية ١٣٢ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ٨ من سورة هود .
(٣) الآية ٤٣ من سورة القمر .
(٤) الآيات ١٢ – ١٤ من سورة البروج .

الإعراض عن آيات الله والتكذيب بها عملياً ، أخاف عليهم أن يحيق بهم عاقبة أمرهم ، فهى سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

شبهاتهم فى الرسالة والرد عليها

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾

المفردات ﴿ **كتابا** ﴾ : صحيفة مكتوبة . ﴿ **قرطاس** ﴾ : الورق الذى يكتب فيه . ﴿ **وللبسنا** ﴾ : اللبس الستر والتغطية ، والمراد جعلنا أمرهم يلتبس عليهم فلا يعرفونه .

كان النبى ﷺ يضيق ذرعاً بقومه من جراء تكذيبهم وعنادهم . ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ﴾[1] ، وكانوا يكثرون فى طلب الآيات الخاصة ، فرد الله عليهم بما ألزمهم .

ولو نزلنا عليك يا محمد كتاباً مكتوباً من السماء فى قرطاس حتى ولو كان هذا الكتاب معلقاً بين السماء والأرض وفيه دعوتهم إلى الدين بالحجة لماآمنوا به ، ولما صدقوك فى ذلك بل ولقالوا : ما هذا إلا سحر وخيال ظاهر ليس فيه حقيقة ، وانظر إلى تعبير القرآن الكريم : نَزَّلنا بالتشديد ، وقوله : ﴿ **كتابا فى قرطاس** ﴾ ، والكتاب لا يكون إلا فيه ، ثم قوله ﴿ **فلمسوه بأيديهم** ﴾ ، وقلبوا فيه وبالغوا فى ذلك ، كل هذه أساليب تفيد المبالغة وتأكيد النزول وتأكدهم منه ، ومع هذا يقولون : ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ ، وكان الكفار قد اقترحوا اقتراحين أولهما : أن ينزل على الرسول ملك من السماء يرونه ويكون معه نذيراً ومؤيداً له ونصيراً ، ذلك أنهم يفهمون أن الرسول بشر والرسالة تتنافى مع البشرية ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾[2] . ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾[3] الفرقان ، وقد حكى الله عنهم هذا كثيراً فى سورة هود وإبراهيم وغيرهما ، وقد رد الله على اقتراحهم هذا بأنه لو أنزل الله ملكا كما اقترحوا لقضى الأمر وهلكوا ثم لا ينظرون ولا يمهلون ، إذ جرت سنة الله فى خلقه ، إذا تعصب قوم وطلبوا آية غير التى أنزلت إليهم ، وأجيبوا إلى طلبهم ، ثم لم يؤمنوا ، يهلكهم الله بعذابه ويقضى عليهم . وهؤلاء من أمة الدعوة المحمدية ، وقد قضى الله ألا يهلكهم بعذاب الاستئصال تكريماً للنبى ﷺ وعسى أن يأتى من نسلهم من يعبد الله حقا ، وقد كان هذا .

الاقتراح الثانى : هلا نزلت الملائكة علينا بالرسالة ، وكان الرسول ملكا لا بشرا ﴿ ما هذا إلا بشر

(١) الآية ١٢ من سورة هود . (٢) الآية ٣٣ من سورة المؤمنون . (٣) الآية ٧ من سورة الفرقان .

مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾[1] فأنت ترى أن اقتراحهم الثانى مبنى على الغرور الكاذب والجهل الفاضح ، وأن هذا النبى الأمين الصادق الكريم لا يستحق هذه الرسالة ، فإن كان ولابد من إرسال بشر فنحن أولى منه ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم .أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ﴾[2] ؟ .

فيرد الله عليهم : لو جعلنا الرسول ملكا لجعلناه رجلا حتى يمكن التفاهم معه والأنس به ومخاطبته ، ولو جعلناه بشرا لعاد الأمر كما كان وللبسنا عليهم واختلط الأمر عليهم ، فإن هذا الرجل سيقول لهم إنى رسول الله كما يقول ﷺ ، أما اختصاص محمد دون غيره بالرسالة وتشريفه بالنبوة فالله أعلم حيث يجعل رسالته .

تسلية النبى ﷺ

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

المفردات ﴿ **استهزئ** ﴾ : الاستهزاء السخرية والاحتقار ويتبع ذلك غالباً الضحك .
﴿ **فحاق** ﴾ : أحاط بهم فلم يكن لهم منه مخرج .

يخبر الله تعالى نبيه الكريم بصيغة القسم ، إن الكفار قد استهزأوا قديماً برسل كثير عددهم ، عظيم شأنهم رسل من قبلك ، فليس استهزاؤهم بك بدعاً بل أنت مسبوق فى ذلك ،فلا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يعملون فهذا شأن الكفار قديما وحديثا . واعلم أنه قد أحاط بهم ، فلم يكن لهم منه مخرج ، وليس لهم مفر ، ولن يفلتوا من عاقبة فعلهم أبدا .

فالآية إرشاد للنبى ﷺ ببيان سنة الله فى الخلق و أن العاقبة للمتقين ، وأن العذاب والخزى للكافرين والمستهزئين ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾[3] .

وإن ارتبتم أيها المشركون فى ذلك فقل لهم : سيروا فى الأرض وتنقلوا فيها لتقفوا بأنفسكم على تاريخ من سبقكم من عاد وثمود ، وطسم وجديس وقوم فرعون وإخوان لوط (فما راءٍ كمن سمعا) سيروا فى الأرض ثم انظروا واعتبروا كيف كان عاقبة المكذبين ؟

أسلوب آخر فى إثبات الوحدانية والبعث

قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ * وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ

(١) الآية ٢٤ من سورة المؤمنون . (٢) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة الزخرف . (٣) الآية ٩٥ من سورة الحجر .

ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

المفردات ﴿ **كتب** ﴾ : فرض وأوجب على نفسه . ﴿ **ليجمعنكم** ﴾ : المراد ليحشرنكم . ﴿ **خسروا أنفسهم** ﴾ : المراد بالخسارة هنا ترك ما يقتضيه العقل والعلم . ﴿ **ما سكن** ﴾ : من السكون أو السكنى والمراد عدم الحركة . ﴿ **فاطر السماوات والأرض** ﴾ منشئهما ومبدعهما على غير مثال سابق . ﴿ **يصرف عنه يومئذ** ﴾ : يبعد عنه . ﴿ **رحمه** ﴾ : أنجاه من الهول الأكبر .

ما هو هذا القرآن يعود إلى إثبات الوحدانية لله والكمال له ، وإثبات البعث والجزاء بأسلوب آخر ، ونمط عال فى الأداء ، وطرقا للسمع من جميع الأنحاء ، حتى لا يمل السامع مع زيادة التكرير والتثبيت فهذا هو المقصود المهم والهدف المرجو للقرآن الكريم .

قل لهم يا محمد لمن ما فى السماوات والأرض ؟ ولمن هذا الكون ما فيه وهذا الوجود وما يحويه ؟ لمن هذه السماوات وقد ازينت ؟ وهذه الكواكب وقد انتثرت .

ولمن هذه الأرض وقد مدت ؟ وفيها الأنهار الجوارى والجبال الرواسى والعوالم التى لا يحيط بها إلا خالقها . قل لهم : هذا كله لله واهب الوجود ، الكبير المعبود ، مالك الملكوت ذو الرحمة والجبروت ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لا إلّه إلا هو الرحمن الرحيم .

وهذا سؤال وجوابه ، قد أُمر بهما ﷺ فى القرآن لأنه هو الجواب المتعين ، ولا يمكن لمنصف أن ينكر هذا أبدا ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ فهم معترفون بهذا ولكن لسوء تفكيرهم يقولون فى الأصنام : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[1] فبئس ما يصنعون ، على أن فى السؤال وجوابه تبكيتا لهم وتوبيخا ، وقد بنى عليه شىء آخر من لوازمه ، قد يجهله المسئولون أو ينكرونه لعنادهم وحماقتهم .

فالله الذى برأ السماوات والأرض ، وله كل ما فيهما مما لا نعلم عنه إلا قليلا ومما هو كالذرة بالنسبة للجبل الأشم ، قد أوجب على نفسه ، وقوله على نفسه لتأكيد الوعد وتحقيقه أوجب الرحمة على عباده إذ هو الرحمن الرحيم ، ليجمعنا ليوم القيامة ويحشرنا لنأخذ الجزاء على أعمالنا ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[2] . ﴿ ولله ما فى السماوات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾[3] والثواب والعقاب على الأعمال من مظاهر الرحمة

(١) الآية ٣ من سورة الزمر . (٢) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة . (٣) الآية ٣١ من سورة النجم .

بالخلق حتى يعرف الخلق ذلك ومتى علم هذا كف باغى الشر عن شره ، وأسرع باغى الخير فى عمله ، مع أنه ليس من العدل ولا الرحمة ألا يجازى المحسن على إحسانه وألا يعاقب المسيء على إساءته ، وكذلك من مظاهر الرحمة هدايتنا إلى معرفته ، ونصب الأدلة على توحيده بما أنتم مقرون به من خلق السماوات والأرض .

وقد سبقت رحمته غضبه وزادت عليه ، فهو يجازى الحسنة بعشر أمثالها ، وقد تضاعف أضعافاً لمن يشاء ، والسيئة بمثلها فقط ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾[1] وأخص هؤلاء الذين خسروا أنفسهم ممن يكذبون بيوم القيامة ، وهم من فسدت فطرتهم ، وساءت نفوسهم فلم يهتدوا بنور الدين ، وحرموا أنفسهم من النظر والتفكير فى هذا الكون وآياته ، بعين العقل والحكمة ، وإنما أعماهم التقليد وسوء الرأى وحمى العصبية وداء الحسد عن النظر الصحيح والفهم السليم ، ولم تكن لهم عزيمة صادقة وإرادة حازمة ، تجعلهم يتركون ما كان عليه الآباء إلى ما وافق العلم والعقل والرأى ، نعم هؤلاء الذين خسروا أنفسهم ، فهم لا يؤمنون أبدا بالبعث والثواب والعقاب ، لله ما فى السماوات وما فى الأرض ، وله ما سكن فى الليل والنهار ولم يتحرك وله ما تحرك ولم يسكن ، فهو المتصرف تصرفاً كاملا فى كل شيء خصوصاً ما سكن وخفى فى الليل ، ومن باب أولى ما تحرك وسكن فى النهار .

فأنت معى أن القرآن تعرض لجميع الأمكنة فى السماوات والأرض ولكل الأزمنة فى الليل والنهار ، وهذا إشارة إلى كمال إحاطته وتمام تصرفه ، وهو السميع لكل قول ودعاء،العليم بكل فعل ونية .

ومن نتائج ذلك عدم اتخاذ الأولياء من دون الله . قل لهم يا محمد أغير الله أتخذ وليا ينصرنى ؟ أو يدفع ضرراً عنى ، أو يجلب خيراً لى ؟ والاستفهام لإنكار اتخاذ غير الله وليا من الأصنام والشفعاء ، أما اتخاذ الأصحاب والأصدقاء من المؤمنين فلا شيء فيه مادام فى حدود كسبه وتصرفه الذى منحه الله لبنى جنسه ، قال لهم : أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ؟ أغير الله فاطر السماوات والأرض ومبدعهما لا على مثال سابق ،أغير الله أتخذه وليا يلى أمورى ؟ فإن من فطر السماء والأرض وأبدعهما من غير تأثير ولا شفيع يجب أن يُخص بالعبادة وحده ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾[2] .

والله سبحانه وتعالى يطعم ويرزق الناس وليس فى حاجة إلى أحد ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾[3] ، وفى هذا تعريض بمن يتخذون من العباد آلهة وهم محتاجون إلى الطعام وما يتبعه من الحاجة إلى الخلاء ، أما من يعبد غير الإنسان فعبادته ضرب من الخيال والجنون . أما وقد ظهرت هذه الحقائق بادية للعيان ، فقل يا محمد إنى أمرت أن أكون أول من أسلم وجهه لله وانقاد ، حيث ثبت أن له ما فى السماوات والأرض ملكا وخلقا وعبيداً وتصريفا وحكما ، وله ما سكن وما تحرك ، وهو السميع البصير ، فاطر السماوات والأرض ، واهب الرزق والحياة ، غير محتاج لأحد ، ليس كمثله شيء ، لهذا

---

(١) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام . (٢) الآية ٤ من سورة الفاتحة . (٣) الآية ٥٧ من سورة الذاريات .

أمرت أن أكون أول من أسلم ، ونهيت عن الشرك بالله وإنى أخاف إن عصيت ربى عذابا عظيماً يوم القيامة ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله .

وإذا كان هذا حال النبى ﷺ الذى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، المعصوم خاتم النبيين والمرسلين ، فما بالنا نحن ؟ وما بالك يا ابن آدم ؟ وإنك لمسكين مغرور حيث تتعلق بالأوهام والالتجاء لغير الله .. من يدفع عنه يومئذ ذلك العذاب فقد رحمه الله ونجاه ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** ﴾[1] وذلك هو الفوز الواضح العظيم .

الأمر كله لله

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

المفردات ﴿ **الضر** ﴾ : وضده النفع هو ما يسوء الإنسان فى نفسه أو بدنه أو عرضه أو ماله . ﴿ **بخير** ﴾ : هو ما يرغب فيه الكل وتطمح إليه النفس كالعقل والعلم والعدل وضده الشر . ﴿ **القاهر** ﴾ : القهر الغلبة والتذليل معا . ﴿ **شهادة** ﴾ : هى إخبار عن علم ومعرفة واعتقاد بنى على المشاهدة بالبصر أو البصيرة .

هذه الآيات تملأ قلوب المؤمنين ثقة بالله واعتمادا عليه وحده ، وعقيدة المسلم (إن الأمر كله لله) . الوجود ملكه والقضاء حكمته وكل الكائنات طوع إرادته ، سبحانه علا فقهر ، وملك فقدر ، وبطن فخبر ، فإذا مسك ضر أو أصابك ما تكرهه فى نفسك أو مالك أو عرضك فاعلم بأنه لا يكشف هذا الضر إلا الله ، فكل شىء قائم به ، وكل شىء خاشع له ، إنه عز كل ذليل وقوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه . وكما أنه هو الذى يكشف الضر ، فهو الذى ينعم بالخير من عافية وراحة بال وهدوء حال ورزق ومال وولد . ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم * يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾[2] . سبحانك لا خالق سواك ولا رازق غيرك ، جاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ

---

(١) الآية ١٨٥ من سورة آل عمران .

(٢) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة فاطر .

كان يقول : ﴿ اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾ : هذا أسلوب حصر وقصر ، فلا قاهر غيره ولا غالب سواه ، واحد بلا عدد ، قائم بلا عمد ، باق بلا أمد ، حكيم تنزه عن العبث ، خبير علم حقائق الأشياء ودقائقها ، تنزهت عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية ، واحد لا من قلة وموجود لا من علة ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ولا تحويه الأقطار ولا يؤثر فيه الليل والنهار ، وهو الواحد القهار .

يا صاحب الهم إن الهم منفـــرج — أبشر بخير فإن الفـــــارج الله
اليـأس يقطـع أحيانـــا بصاحبـــه — لا تيـأسنَّ فإن الكافـــىَ الله
الله يحدث بعـــد الـــعسر ميسرة — لا تجزعـــنَّ فإن الصانـــع الله
إذا بُلـــيت فثـــق بالله وارض به — إن الـذى يكشف البلوى هو الله
والله مالك غير الله من أحــــــد — فحسبك الله فى كلٍّ لك الله .

قوله تعالى : ﴿ **قل أى شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم** ﴾ : هذا خطاب كريم من رب كريم موجه إلى رسول كريم فيه يقين للقلوب المؤمنة منه وإفحام لقلوب المعاندين : ﴿ **أى شيء أكبر شهادة** ﴾ ؟ **ويأتى الجواب فى وضوح وصراحة** ﴿ **قل الله شهيد بينى وبينكم** ﴾ وحيث إنه لا شيء أكبر شهادة من الله فكفى بالله شهيداً وكفى به عليماً وكفى به خبيراً . من أصدق من الله حديثا ؟ لا أحد أصدق من الله قيلا ؟ لا أحد . أأنتم أعلم أم الله ؟ الله يعلم وأنتم لا تعلمون . الله شهيد بينى وبينكم ؟ فهو الحق وقوله الحق ووعده الحق ولقاؤه حق ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون** ﴾ : الوحى هنا خاص بالأنبياء ، وهو إعلام الله تعالى نبيا من أنبيائه بحكم من أحكامه بواسطة أو بغير واسطة ، أو هو عرفان يجده النبى فى نفسه مع اليقين بأنه من عند الله ، قال تعالى : ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء**

---

(١) أخرجه البخارى فى الأذان (١٥٥) وفى الاعتصام (٣) وفى القدر (١٢) وفى الدعوات (١٧) . وأخرجه مسلم فى الصلاة (١٩٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦) وفى المساجد (١٣٧ ، ١٣٨) . وأخرجه أبو داود فى الصلاة (١٤٠) وفى الوتر (٢٥) وفى الأدب (٨٨) . وأخرجه الترمذى فى الصلاة (١٠٨) والنسائى فى التطبيق (٢٥) وفى السهو (٨٥ ، ٨٩) وأخرجه الدارمى فى الصلاة (٧١ ، ٨٨) . والإمام مالك فى القدر (٨) . والإمام أحمد فى (٣ : ٨٧) وفى (٤ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٨٥) .

(٢) الآية ٢٥ من سورة النور .

حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ؟ إنه على حكيم * وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ﴾(١) .

فتأمل معى كيف اختلفت وسائل الوحى وطرقه وكيف تعددت أشكاله : فقد يكون بالقذف فى القلب كما قال ﷺ : « إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب »(٢) .

وقد يكون من وراء حجاب كما كلم الله موسى تكليما ، وقد يكون بواسطة الملك جبريل فيوحى الله ما يشاء بإذنه تعالى ، وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا ﴾(٣) .

فللوحى حرس ملائكى وحفظة كرام ، وجبريل هو كبير أمناء وحى السماء وسفير الأنبياء الذى يجوب الآفاق ويطوى بأجنحته السبع الطباق ، وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾(٤) .

فانظر كيف جعل الوحى روحا يحيى الموات ونورا يبدد غياهب الظلمات . ثم تأمل معى كيف كانت كلمة الوحى الناطقة بالصدق . صدق الوحدانية وأساس الرسالات : ﴿ أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ وصلوات ربى وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله يا من أعلنتها فى سمع الزمان صريحة مدوية : « أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى : لا إله إلا الله » فمن ادعى وحيا بعد رسول الله فإنه كذاب أشر ، ومن ادعى رسالة وقال إن محمدا خاتم النبيين ولم يختم المرسلين قلنا : إن النبوة أعم من الرسالة ، فمن ختم الأعم فقد ختم الأخص . لذا نقرر أن لا نبوة بلا وحى ولا رسالة بلا نبوة ، وقد أخبرنا أصدق القائلين بأنه أكمل الدين وأتم النعمة ورضى لنا الإسلام دينا . فقد أنزل على الرسول فى حجة الوداع قوله الذى انتظم أربع بشريات : ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ﴾(٥) . ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ . فمن ادعى رسالة بعد رسول الله كما يقول أصحاب الأديان الوضعية التى صنعها الاستعمار على عينيه وأغدق عليها من ماله وأجلب عليها بخيله ورجله ، من ادعى منهم رسالة سألناه : ما طبيعة هذا الدين الذى جئت به إن قال إنه الإسلام قلنا له : لقد أكمل الله الدين ، فإذا كان قد أكمله فإن دين الله ليس فى حاجة إلى زيادة أبداً وإذا كان قد أتم النعمة فنعمة الله لا تنقص أبدا . وإذا كان قد رضى لنا الإسلام دينا فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ..

---

(١) الآيات ٥١ – ٥٣ من سورة الشورى . (٣) الآيات ٢٦ – ٢٨ من سورة الجن . (٤) الآية ٢ من سورة النحل .
(٢) أخرجه ابن ماجه فى التجارات (٢) . (٥) الآية ٣ من سورة المائدة .

فإذا قال إنه غير الإسلام . قلنا له : بيننا وبينك بعد المشرقين فبئس القرين : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ **لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ أى لأنذركم بالقرآن ، فأنا لكم نذير مبين بين يدى عذاب شديد ، كما أننى أنذر من بلغه هذا القرآن فى مشارق الأرض ومغاربها من إنس وجان . وهذا دليل على عموم رسالته ودوامها إلى أن يقوم الناس لرب العالمين . فدعوة الإسلام دعوة عالمية خاتمة دائمة فقد جاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **ومن بلغ** ﴾ أى من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى ﷺ وكلمه . جاء فى الحديث الشريف عن النبى ﷺ أنه قال : ﴿ بلغوا عن الله فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله ﴾[(٢)] . وقال الربيع بن أنس : حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذى دعا رسول الله ﷺ وأن ينذر بالذى أنذر .

قوله تعالى : ﴿ **أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون** ﴾ هذا تقرير لقضية التوحيد التى قامت عليها السماوات والأرض . فبعدما أثبتت الآية فى صدرها أن الله أكبر شهادة وهو شهيد بينه وبينهم أكدت هذا المعنى بسؤال وجواب . جاء السؤال مصورا بتلك العبارة الرصينة : ﴿ **أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى** ﴾ ، وجاءت الإجابة بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ **قل لا أشهد** ﴾ وجاء التوكيد فى صورة من روائع البيان وتصديق الجنان : ﴿ **قل إنما هو إله واحد** ﴾ إنه نداء الفطرة السليمة التى ولد كل مولود عليها ولكن كدَّرت صفوها ظلمات القلوب الجائرة التى عبثت بها الأهواء الزائفة . قال ﷺ : (كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يمجسانه أو يهودانه أو ينصرانه)[(٣)] . نعم إنه نداء الفطرة فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقلت له : من خالقك ؟ لأجابك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان . ﴿ تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾[(٤)] .

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ماصنع المليك
عيون من لُجَين شاخصات ... بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وبعد إثبات الوحدانية تأتى البراءة من كل ما يشركون ، وما أجل قوله تعالى حكاية عن إبراهيم مع

(١) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .
(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء (٥٠) . والترمذى فى العلم (١٣) . والدارمى فى المقدمة (٤٦) . والإمام أحمد فى (٢ ، ١٥٩ ، ٢٠٢ ، ٢١٤) .
(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز (٧٩ ، ٩٢) وفى تفسير سورة ٣٠ (١) وفى القدر (٣) . وأخرجه مسلم فى القدر (٢٢ – ٢٥) . والترمذى فى القدر (٥) . والإمام مالك فى الجنائز (٥٣) .
(٤) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

قومه : ﴿ فإنهم عدو لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾[1] .

كان لأبى ذر الغفارى رضى الله عنه صنم يعبده أيام الجاهلية ، فجاء ذات يوم ليقدم له مراسيم الطاعة والولاء ، فوجد بللاً برأسه فنظر فى الأمر : من الذى أصابه بالبلل فوجد ثعلبا ، فعلم أنه بال على صنمه ، فنظر أبو ذر إلى معبوده وقال فى عبارة رصينة نسج خيوطها من ضياء التوحيد قال :

أربٌ يبـــول الثعلبان برأسه ؟ لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب
فلو كان ربًّـا كان يمنـــع نفسه فلا خير فى رب نأتـه المطـالب
برئت من الأصنام فى الأرض كلهَا وآمـــنت بالله الـــذى هو غالب

حقا إن الله صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة كفى به وليا وكفى به نصيرا .

افتراء على الله

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

المفردات ﴿ **آتيناهم الكتاب** ﴾ : المراد بهم اليهود والنصارى . ﴿ **يعرفونه** ﴾ : أى النبى ﷺ . ﴿ **كما يعرفون أبناءهم** ﴾ : المراد بالتشبيه إثبات الحقيقة فى كل . ﴿ **تزعمون** ﴾ : أى تدعون كذبا لذا قالوا : زعموا مطية الكذب . ﴿ **فتنتهم** ﴾ : الفتنة الاختبار والمراد عاقبة الشرك . ﴿ **كذبوا على أنفسهم** ﴾ : خدعوها بالأباطيل .

روى أن كفار قريش سألوا أهل الكتاب عن رأيهم فى النبى ﷺ وفى دينه فقالوا : ليس فى التوراة والإنجيل شىء يدل على نبوته ، وقد شهد له الله بالرسالة والصدق فبقى أن يثبت كذب أهل الكتاب فى شهادتهم ومن هنا كانت المناسبة .. وقد روى « أن عمر بن الخطاب لما قدم المدينة سأل عبد الله بن سلام عن هذه المعرفة فقال يا عمر : لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابنى . وأشهد أنه حق من عند الله » .

(١) الآيات ٧٧ - ٨٢ من سورة الشعراء .

إن الذين أنكروا نبوة خاتم الأنبياء إنما أساءوا إلى أنفسهم فلن يضير الشمس أن ينكر ضوءها من بعينيه رمد :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

ولن يضير البحر الطهور أن يلقى فيه غلام بحجر :

ما يضر البحر أمسى زاخرا ... أن رمى فيه غِلام بحجر

ولن يعيب الورود ألا يشم عطرها مزكوم :

وما ضرَّ الورود وما عليها ... إذا المزكوم لم يطعم شذاها

وكما قال الحكيم المتنبى :

ومن يك ذا فم مرٍّ مريض ... يجد مرّاً به الماء الزلالا

إن الذين أنكروا نبوة محمد ﷺ كالذى أراد أن يثير التراب على السماء فأثاره على نفسه وبقيت السماء هى السماء ضاحكة السن بسامة المحيا .. إن الدليل على صدق الإسلام ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام أنه أمرنا أن نؤمن بجميع الأنبياء . قال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربَّنا وإليك المصير ﴾[1] .

فكل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[2] وقد جمع الله له الأنبياء والمرسلين فى ليلة الإسراء وقال له : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾[3] فاستحى الرسول أن يسأل .

لقد قال القرآن كلمته الحاسمة التى جاءت فصل الخطاب فى تلك القضية ، قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ، والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما ﴾[4] .. وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾[5] ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾[6] إن الذين أنكروا نبوة محمد ﷺ قد خسروا أنفسهم . فالله تعالى

(١) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٤٥ من سورة الزخرف .
(٤) الآيات ١٥٠ – ١٥٢ من سورة النساء .
(٥) الآية ١٩ من سورة آل عمران .
(٦) الآية ٢١٣ من سورة البقرة .

يقول فى حديثه القدسى الجليل : (وعزتى وجلالى لو سلكوا إلى كل طريق ، واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد) .

الله أكبر إن ديـــن محمـــد وكتابــه أقــوى وأقــوم قيــلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديــلا

إن الذين أنكروا نبوة محمد وجحدوا رسالة الإسلام خسروا أغلى ما يملكون ، لم يخسروا مالا ولا ولدا ولا سلطانا خسروا النفوس ، فهم لا يؤمنون كما قال تعالى : ﴿ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾[1] . وكما قال جلَّ شأنه : ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾[2] ... ثم ينتقل النظم الكريم إلى مشهد من مشاهد القيامة مع هؤلاء الكاذبين المفترين فيقول جلّ شأنه : ﴿ **ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون** ﴾[3] .

هذا سؤال يوجهه علام الغيوب فى ساحة العدل الإلهية الكبرى يوم القيامة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد ، يقول الله للمشركين : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون أنهم ينفعون ويضرون ويخلقون ويرزقون ؟ وهذا سؤال توبيخ وتقريع وتبكيت جاءت الإجابة عنه بالكذب والبهتان والحنث فى يمين الله . قال تعالى : ﴿ **ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ وقد فسرت الفتنة هنا بمعانى كثيرة : فسرت بالاختبار والابتلاء والحجة والمعذرة ، والمقصود بهذا نتيجة الابتلاء والاختبار . وقد أقسموا بالله كذباً وبهتاناً وقالوا فى نص الحلف : ﴿ **والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ فاعجب لجرأتهم على الله أيقسمون بالله كذباً أمام من يعلم السر وأخفى ؟ أمام من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ؟

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أتاه رجل فقال : يا ابن عباس سمعت الله يقول : ﴿ **والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ فقال : إنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة ، فقالوا : تعالوا فلنجحد ، فيجحدون ، فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثا ، فهل فى قلبك الآن شىء ؟ إنه ليس من القرآن شىء إلا ونزل فيه شىء ولكن لا تعلمون وجهه . لذلك كان التعقيب على قولهم ، يأخذ بالألباب ، فقد يستولى عليك العجب عندما تقرأ قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ **انظر كيف كذبوا على أنفسهم** ﴾ إنهم لم يكذبوا على الله :

الله يدرى كل ما تضمـــــر يعلـم ما تخفـى ومـا تظهـر
وإن خدعت الكل لم تستطــع خداع من يطـوى ومـن ينشر

(١) الآية ٩ من سورة الأعراف . (٢) الآية ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة المؤمنون . (٣) الآية ٢٢ من سورة الأنعام .

إنهم كذبوا على أنفسهم ، وجاءت نتيجة الكذب أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ﴿ **وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا ﴾ .

من مواقف الكفار

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

المفردات ﴿ **الأكنة** ﴾ : جمع كنان وهو الغطاء والستر . ﴿ **وقرا** ﴾ : صمما وثقلا فى السمع . ﴿ **آية** ﴾ : علامة دالة على صدق الرسول . ﴿ **أساطير** ﴾ : جمع أسطورة وهى الخرافة . ﴿ **وينأون** ﴾ : يبعدون عنه ويعرضون .

هذه بعض مواقف أهل الكفر الذين جبلت قلوبهم على الإنكار والجحود فمن هؤلاء المعاندين من يأتى ليستمع إلى ما يقوله صاحب الرسالة العصماء وما يتلوه عليهم من الآيات لم يأت هو بقصد الهداية ، إنما جاءوا ليهزأوا مما يتلى عليهم ، وقد علم الله منهم ذلك فجعل على قلوبهم أكنة وأغطية وحجباً تمنع وصول الحق إليها ، هذه الأكنة مانعة من الفقه والفهم والمعرفة كما قال الله تعالى : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم . ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾[1] . وكما قال جل شأنه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون * ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون** ﴾[2]. وكما أن القلوب حجبت عن الفقه والمعرفة فإن الأذان قد صمت عن سماع ما يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ففى الآذان وقر وصمم كما أن على القلوب أكنة ، كما أن النفوس قد أصرت على عدم الإيمان ، قال تعالى : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾[3] . ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداءً صمٌّ بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾[4] .

وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ، إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبدا ﴾[5] .

فمن أين يأخذ الحق طريقة إلى هؤلاء وقد سدت منافذ المعرفة . وأحيطت مجالات الفهم بأسوار عالية تمنع من تسرب النور إلى القلوب ، ومن مواقف هؤلاء المعاندين أنهم إذا جاءوك ، يا مبعوث العناية الإلهية ويا شمس الهداية الربانية ، لا يأتون طالبين الحق إنما يأتون محاولين ليدحضوا الحق بالباطل . ماذا

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنفال .
(٢) الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة الأنفال .
(٣) الآية ٢٥ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ١٧١ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٥٧ من سورة الكهف .

يقولون إذا جاءوك ؟ يقولون : إن هذا إلا أساطير الأولين . هكذا كانوا يصفون آيات القرآن : ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾[1] ، ويقصدون بالأساطير الخرافات والخزعبلات . ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾[2] ﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ **وهم ينهون عنه وينئون عنه** ﴾ : وهذا موقف آخر من مواقفهم السيئة القبيحة . جمعوا فى هذا الموقف بين سوأتين : **الأولى** : أنهم ينهون الناس عن اتباع سيد الخلق صلوات ربه وسلامه عليه . **والثانية** : أنهم ينأون ويبتعدون عن اتباع الحق ، فهم كما قال الله تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾ ، فالنهى صد عن سبيل الله ، والنأى كفر ، فاستحق هؤلاء أن يحكم عليهم مولانا جل شأنه بالهلاك والإهلاك قال تعالى : ﴿ **وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾ .

من مشاهد القيامة

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾

المفردات ﴿ **وقفوا على النار** ﴾ : يقال وقف على الشيء عرفه وتبينه ، ووقف نفسه على الشيء حبسها ، ومنه وقف العقار على الفقراء . ﴿ **ياليتنا** ﴾ : كلمة يراد بها التمنى وهو طلب الأمر المستحيل أو ما فيه عسر . ﴿ **نرد** ﴾ : نرجع إلى الدنيا . ﴿ **بدا لهم** ﴾ : ظهر ووضح

هذا مشهد رهيب من مشاهد القيامة . إنها سلسلة متصلة الحلقات من الأهوال الجسام ، تبدأ من سكرات الموت . قال تعالى : ﴿ إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم . اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾[4] ثم تدرج السلسلة فى حلقاتها : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾[5] . ثم ماذا فى عالم البرزخ : ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشياً ﴾[6] ثم ماذا : ﴿ أغرقوا فأدخلوا نارا ﴾[7] ثم تتحرك الأهوال حتى يبعثوا من القبور : ﴿ فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ، قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾؟ فيقال لهم : ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق

---

(١) الآية ٥ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٥ من سورة الكهف .
(٣) الآية ٦ من سورة الفرقان .
(٤) الآية ٩٣ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ٩٤ من سورة الأنعام .
(٦) الآية ٤٦ من سورة غافر .
(٧) الآية ٢٥ من سورة نوح .

المرسلون ﴾[١] . ثم يأتى الحشر : فكيف حالهم فى هذا اليوم العصيب ؟ قال تعالى : ﴿ ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾[٢] ، ثم يأتى دور الصحف حيث يأخذون كتبهم بشمائلهم ومن وراء ظهورهم ، فيقول كل منهم : ﴿ ياليتنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه ، ياليتها كانت القاضية * ما أغنى عنى ماليه * هلك عنى سلطانيه ﴾[٣] فيقال من قبل الحق جل جلاله : ﴿ خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾[٤] .

ثم ماذا ؟ إلى المشهد المهيب . إنهم وقفوا على النار ، ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾[٥] فماذا يقولون وقد وقفوا على النار موقف التمنى والندم ؟ يقولون : ﴿ ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾[٦] .

ندم البغاة ولات ساعة مندم

وهل ينفع الندم ؟ ليت . وهل ينفع شيء ؟ ليت . ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا *ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾[٧] وهل تنفع عودتهم إلى الدنيا ؟ قال تعالى : ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير . فذقوا فمالظالمين من نصير * إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور ﴾[٨] .

فماذا كان الجواب على تمنيهم هذا ؟ وما نيل المطالب بالتمنى . قال تعالى : ﴿ **بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل** ﴾ أى ظهر واتضح لهم ما كانوا يخفون من الكفر والتكذيب بالقيامة ومشاهدها . فمن كفر بشيء أخفاه ومن كذب بشيء طواه فى نفسه . لقد كانوا يكذبون بالنار فرأوها رأى العين . ﴿ يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دعا * هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾[٩] .

قوله تعالى :﴿ **ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون** ﴾ . هذا إخبار ممن يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، إخبار عن حال هؤلاء المارقين المراوغين إنهم لو ردوا إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والتكذيب والجحود ، وإنهم لكاذبون فيما قالوه : ﴿ يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ قوله تعالى ﴿ بل ﴾ حرف إضراب إبطالى يفيد إبطال ما قالوه سابقا .

(١) الآيتان ٥١ ، ٥٢ من سورة يس .
(٢) الآية ٩٧ من سورة الإسراء .
(٣) الآيتان ٢٥ – ٢٩ من سورة الحاقة .
(٤) الآيات ٣٠ – ٣٢ من سورة الحاقة .
(٥) الآية ٥٣ من سورة الكهف .
(٦) الآية ٢٧ من سورة الأنعام .
(٧) الآيات ٢٧ – ٢٩ من سورة الفرقان .
(٨) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة فاطر .
(٩) الآيات ١٣ – ١٦ من سورة الطور .

نعم . لعادوا لما نهوا عنه وقالوا : ﴿ **إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين** ﴾ ، هكذا يخبر علام الغيوب عن حقائق هؤلاء إنهم لو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى ضلالهم وبهتانهم وقولهم : ﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا ﴾ فهم فى زعمهم سيموتون ولا شىء بعد الموت وما هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر كما قالوا . وجاء الرد عليهم من العلى الأعلى : ﴿ قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبئن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ .

من مواقف الآخرة

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

المفردات ﴿ **الساعة** ﴾ : هى الوقت المحدد المعروف وتطلق فى لسان الشرع على الوقت الذى ينقضى به أجل الدنيا وتبدأ به الحياة الأخرى . ﴿ **بغتة** ﴾ : فجأة . ﴿ **ياحسرتنا** ﴾ : الحسرة : الندم على ما فات كأن المتحسر قد انحسر وانكشف عنه الجهل الذى حمله على ما ارتكبه . ﴿ **ما فرطنا** ﴾ : التفريط التقصير فى الشىء مع القدرة على فعله . ﴿ **أوزارهم** ﴾ : جمع وزر : وهو الحمل الثقيل ويطلق فى لسان الشرع على الإثم والذنب كأنه لثقله على صاحبه كالحمل الذى يثقل ظهره . ﴿ **لعب** ﴾ : هو العمل الذى لا يقصد به نفع أو دفع ضر . ﴿ **لهو** ﴾ : ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه .

مازال النظم الكريم يعرض لصور أهل الشرك والعناد والجحود فقد وقفوا على النار فى المشهد السالف ، وهم فى هذا المشهد وقفوا بين يدى الحق جل جلاله فيسألهم سبحانه وهو العليم الخبير يسألهم سؤال تبكيت وتقريع وتوبيخ : ﴿ **أليس هذا بالحق** ﴾ أى أليس هذا الذى ترونه من بعث وحشر ونشر وصحف وصراط وميزان وجنة ونار . فماذا يقولون ؟ هل ينكرون أو يجادلون أو يراوغون أو يمارون ؟ لقد انقطعت المعاذير وبرح الخفاء وانكشفت الأسرار .

﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد * لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾[1] .

﴿ **قالوا بلى وربنا** ﴾ . هذه إجابة بلغت فى صراحتها ووضوحها مبلغ الشمس وهى تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ، فيصدر الله سبحانه حكمه العادل فيهم مدعماً بالحيثيات . قال : ﴿ **فذوقوا**

(١) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة ق .

عظمة الله ووحدانيته ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾[١] ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾[٢] .

وكذلك ﴿ نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ ليعلم علم اليقين ، وليكون من الموقنين ، فماذا كان جواب قومه الذين حطم إبراهيم أصنامهم ، وغاب آلهتهم ، وسفه أحلامهم ، لقد وقف منهم موقف المناظرة ، يرخى العنان للخصم ليلقمه بالحجارة فى حلقه ويفحمه ، ويزهق باطله ، ويرسل قذائف الحق تدمر مواقع الباطل ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾[٣] .

لقد قال لقومه عندما جن عليه الليل ، وأرخى سدوله ، رأى كوكبا فقال لقومه على سبيل الفرض الجدلى توصلاً إلى الحق : هذا ربى ، فلما غاب ذلك الكوكب قال إبراهيم : لا أحب الأفلين ، أى ما كان ينبغى إن كان هذا الكوكب معبوداً أن يأفل ويغيب ، فما الذى غيبه ؟ إن الذى غيبه هو خالقه الذى لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليما قديرا .

وينتقل إبراهيم عن الكوكب وأفوله إلى القمر وبزوغه وظهوره ، فيقول إبراهيم من باب إرخاء العنان للخصم ، والجدل الموصل إلى الحق : هذا ربى ، فلما أفل وغاب ، قال إبراهيم معرضا بقومه : لإن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، أى من هؤلاء الذين تنكبوا الجادة ، وحادوا عن الطريق المستقيم ، وفى التلميح ما يغنى عن التصريح ، وفى الإشارة ما يغنى عن العبارة.

فلما انتقل إلى الشمس وقد أشرقت بنور ربها ، قال إبراهيم ، هذا ربى هذا أكبر ، أى أكبر من الكوكب والقمر ، فلما أفلت الشمس وغابت وطوتها ظلمة الليل ، أعلن إبراهيم النتيجة الصادقة التى لا يمارى فيها إلا كل أفاك أثيم ، قال : يا قوم إنى برىء مما تشركون .

ثم بين لهم طريق الهدى والرشاد ، والحق والسداد : إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، فهو خالقهما وما فيهما ، بل ﴿ ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾[٤] حنيفاً مائلاً عن الشرك ، وما أنا من المشركين .

فماذا كان جواب قومه بعدما حطم دولة الأصنام ، وسفه تلك الأحلام التى يشغشغ فيها الهواء ، قالوا ﴿ حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾[٥] حكمت محكمة الأرض بالإعدام حرقا ، وحكمت محكمة السماء بالإفراج فوراً ﴿ قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾[٦] .

لا إلٓه إلا الله أخلو بها وحدى ، لا إلٓه إلا الله أفنى بها عمرى ، لا إلٓه الله يغفر بها ذنبى ، لا إلٓه إلا الله ألقى بها ربى ، لا إلٓه إلا الله أدخل بها قبرى ، كيف يعبدون غير الله ، وغير الله باطل ، كيف

(١) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ١٠١ من سورة يونس .
(٣) الآية ١٨ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ٥٦ من سورة الأنبياء .
(٥) الآية ٦٨ من سورة الأنبياء .
(٦) الآية ٦٩ ، ٧٠ من سورة الأنبياء .

يسجدون للكائنات وينسون خالق الكائنات ، ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾[1] .

انظر لتلك الشجرة ذات الغصون النضره
كيف نمت من حبة وكيف صارت شجره
فانظر وقل من ذا الذى يخرج منها الثمره
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمره
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدره
انظر إلى الليل فمن أوجد فيه قمره
وزانه بأنجم كالدرر المنتثره
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمره
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدره
انظر إلى المرء وقل من شق فيه بصره
من ذا الذى جهزه بقوة مفتكره
انظر إلى الشمس التى جذوتها مستعره
فيها ضياء وبها حرارة منتشره
من ذا الذى أوجدها فى الجو مثل الشرره

المؤمنون أحق بالأمن

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

المفردات : ﴿ **وحاجه قومه** ﴾ : المحاجة المجادلة والمغالبة . وتطلق على ما يدلى به الخصم فى

(١) الآية ٥٤ من سورة الأعراف .

إثبات الدعوى وعلى رد دعوى الخصم وهى بهذا إما حجة دامغة أو شبهة واهية . ﴿ **بظلم** ﴾ : المراد به الشرك لأنه الظلم الأكبر .

ها هو ذا إبراهيم قد جاء قومه بالحق ، وأورد لهم البينات من الحجج الدامغة والأدلة القاطعة ، حيث تمشى معهم ، ونزل إلى مستواهم ، وفى النهاية أثبت أن الله الذى فطر السموات والأرض هو المعبود بحق لا إله إلا هو . وحاجه قومه بأوهى الحجج ، وأتوا بشبهات هزيلة لا تنهض دليلا إلا عند الذين ختم الله على قلوبهم وجعل على سمعهم وبصرهم غشاوة ، فقد قالوا : إنا نتخذهم آلهة تقربنا إلى الله ، وتشفع عنده ، ونحن قد وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، وإياك يا إبراهيمَ والآلهة واحذرهم فإنا نخاف عليك منهم قال إبراهيم : أتحاجونى فى الله ، إن هذا لشيء عجيب ، كيف ذلك ؟ والله خلق السموات والأرض وله ملكوت ، لا يحيط به إلا هو ، وهو القادر على كل شيء ، وهذه الأصنام لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا ترى،بل هى مخلوقة لكم ، ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾(١). أتحاجونى فى الله وقد هدانى إلى سواء السبيل ، ولا أخاف هذه الأصنام أبداً ، فهى لا تنفع نفسها ولا غيرها ، ولا تضر ، وكيف أخاف ما تشركون به ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأنا لا أخافهم فى وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله ربى وربكم لى شيئاً من الألم . أو الضر ، فينزل بى ما يشاء ، كأن يقع على صنم فيصيبنى، أو ينزل شهاب من السماء فيحرقنى كل ذلك بمشيئة الله وحده ، أما أن لهذه الأصنام شيئاً فى أنفسها أو فى غيرها ، فهذا شيء لا يدور بخلد عاقل ولا ينطق به إنسان كامل . أعميتم فلا تتذكرون شيئاً أصلا ، حتى تسووا بين الخالق والمخلوق ، وبين الإله واهب الوجود وبين الحجر أو الكواكب المخلوقة .

عجباً لكم كيف أخاف آلهتكم التى ينادى العقل الحر بأنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تخافون إشراككم بالله غيره ، وقد قامت الحجج العقلية والنقلية على أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد . وإذا كان هذا هو الواقع فأينا أهدى سبيلا ، وأحسن رأيا ، وأقوم قيلا ، وأحق بالأمن وعدم الخوف ، إن كنتم من أهل العلم والعقل والفكر الحر-الذين آمنوا أحق الناس بالأمن والطمأنينة ، لأنهم آمنوا بالله ورسله ، وسلكوا طرق العقل والحكمة ، ولم يخلطوا إيمانهم بظلم كالشرك ، أولئك لهم الأمن الكامل التام فى الدنيا والآخرة ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، روى البخارى ومسلم (أنه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وقالوا يا رسول الله : وأينا لا يظلم نفسه فقال ﷺ ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح « يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم »)(٢) وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم حجة له على قومه ، ولا غرابة فى ذلك فالله يرفع من يشاء من عباده ، درجات بعضها فوق بعض ، فهذه درجة الإيمان ، وأخرى درجة العلم ، وثالثة درجة الحكمة والتوفيق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، إن ربك عليم بخلقه .

---

(١) الآية ٧٣ من سورة الحج .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء (١٨ ، ٤١) . ومسلم فى الإيمان (١٩٧) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٧٨ ، ٤٢٤ ، ٤٤٤) .

إبراهيم أبو الأنبياء ومكانته

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

المفردات : ﴿ **اجتبيناهم** ﴾ : اخترناهم واصطفيناهم . ﴿ **لحبط** ﴾ : بطل عنهم عملهم . ﴿ **الحكم** ﴾ : العلم النافع والفقه فى الدين وقيل القضاء بين الناس .

كان إبراهيم عليه السلام أمة ، وكان من القانتين ، وهو من أولى العزم ، وهو أبو الأنبياء ، فما من نبى بعده إلا وهو من سلالته ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ﴾[1] ووهبنا له على كبر منه وعقم من امرأته ويأس إسحاق ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾[2] جزاء إيمانه الكامل وإحسانه الشامل ونجاحه فى ابتلاء الله له بذبح ولده إسماعيل . فإبراهيم من شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء فهو من سلالة نوح ﴿ ونوحاً هدينا من قبل ﴾[3] وهدينا من ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، فهى ذرية طيبة ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾[4] وإبراهيم واسطة العقد ، جده نوح ، وأولاده الأنبياء ، وكذلك نجزى المحسنين وهدينا من ذريته كذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس وكل من الصالحين ، وهدينا من ذرية إسماعيل ابنه لصلبه ، وجد المصطفى ﷺ ، إسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلاً فضلنا على عالمى زمانهم . وهدينا بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ، إذ لم يكن الكل مهديا إلى الخير ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾[5]

---

(١) الآية ٢٦ من سورة الحديد .
(٢) الآية ٧١ من سورة هود .
(٣) الآية ٨٤ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٣٤ من سورة آل عمران .
(٥) الآية ٢٦ من سورة الحديد .

ولقد اجتبيناهم واخترناهم، وخصصناهم بمزايا كثيرة ، وهديناهم صراطا مستقيما ﴿ **ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده** ﴾ ﴿ **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم** ﴾ ولو أشركوا بالله شيئاً لكان جزاؤهم أن تحبط أعمالهم ، إذ توحيد الله سبحانه وتعالى هو المزكى للنفوس ، المطهر للأرواح ، هو أساس الثواب ، ومناط الأجر ، فإذا انهار الأساس فلا يبقى معه ثواب للعمل أصلا ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾[1] .

أولئك المذكورون جميعا ينهلون من معين واحد ولهم رسالة واحدة هى إرساء قواعد التوحيد فى الدنيا لله سبحانه وتعالى ، وإن اختلفت فى الشكل وطرق الأداء والمعجزات تبعاً لظروف كل زمن وأمة ، أولئك الذين آتيناهم الكتاب كصحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى ، وآتيناهم الحكم والعلم والفهم الصادق والنبوة ، ولاشك أن كل نبى كذلك ، إذ أساس النبوة العلم والفقه والفهم والفطانة .

فالنبوة قيادة وزعامة فى الدين والدنيا ، وهل تتم بدون هذا ، أما الحكم بمعنى فصل القضاء والحكم بين الناس فلم يعط لكل نبى ، وهذه مراتب الفضل فيهم فكل من أوتى الكتاب أوتى الحكمة والنبوة ، وكل من أوتى النبوة أوتى الحكم ، وليس كل من أوتى النبوة أوتى الكتاب فإن يكفر بالكتاب والحكم والنبوة التى أوتيت كلها لك يا محمد فإن يكفر بها كفار قريش فقد وكلنا بعنايتها ، ووفقنا للإيمان بها والعمل على خدمتها ، والدعوة إليها ، قوما كراماً ليسوا بكافرين بها ، والمراد بهؤلاء القوم أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ومن جاء بعدهم ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين ، أولئك الذين هداهم الله ووفقهم ، فهم أئمة الدين وأعلام الهدى فبهداهم هذا اقتد يا محمد ، وقد جمع جميع خصالهم فى الخير فكان خاتم النبين ، وإمام المرسلين ، قل لهم لا أسألكم على القرآن أجراً ولا منفعة خاصة ، وما هو إلا ذكرى للعالمين ، وهدى للمتقين .

إثبات رسالة الرسل وأثرها

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

(١) الآية ٦٥ من سورة الزمر .

المفردات : ﴿ **وما قدروا الله** ﴾ : يقال قدرت الشيء عرفت مقداره ، والمراد ما عرفوا الله حق المعرفة . ﴿ **قراطيس** ﴾ : جمع قرطاس وهو ما يكتب فيه من ورق أو غيره . ﴿ **مباركا** ﴾ : كثير البركة . ﴿ **أم القرى** ﴾ : المراد بها مكة المكرمة .

قوله تعالى ﴿ **وما قدروا الله حق قدره** ﴾ : أى ما عرفوه حق معرفته وما وصفوه بما يليق بذاته ، فقد وجب له كل كمال ، واستحال عليه كل نقص . فهو صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق . ومن مظاهر عدم معرفتهم بقدرته أنهم أنكروا الرسالات السماوية المنزلة على أنبيائه وصفوة عباده : ﴿ **إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء** ﴾ فقد جعلوا من البشرية منطلقا لإنكار الرسالات ، كما قال سبحانه فى بيان ذلك ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذجاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾(١) .

وقد أنكر الله عليهم هذه المقولة ، قال تعالى : ﴿ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾(٢) . قال الكافرون : ﴿ **إن هذا لساحر مبين** ﴾ . وجاء الرد من الله تعالى صريحا واضحا على ما قالوه من إنكار الرسالات وإنزال الكتب . فقال سبحانه : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ﴾(٣) . إن الذى أنزله هو الذى أنزل القرآن على محمد .. وكما وصف الله تعالى التوراة بأنها هدى ونور ، فقد وصف القرآن بأنه روح ونور . قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾(٤) فالروح يحيى الموات والنور يبدد غياهب الظلمات .

أشرق النور فى العوالم لما ... بشرتها بأحمد الأنباء
جاء للناس والسرائر فوضى ... لم يؤلف شتاتهن لواء
وحمى الله مستباح وشرع الله ... والحق والصواب وراء
تلك آى الفرقان أرسلها الله ضياءً ... يهدى بها من يشاء
ولجبريل جيئة وذهاب ... وهبوط إلى الثرى وارتقاء
نسخت سنة النبيين والرسل ... كما ينسخ الضياء الضياء

وقد نعى الله تعالى على القوم أنهم جعلوا من التوراة قراطيس ومفردها قرطاس ، وهو ما يكتب فيه . ونقلوا من الأصل إلى تلك القراطيس جملا ، أظهروا بعضها وأخفوا كثيرا منها . والويل كل الويل لهؤلاء . ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾(٥).

---

(١) الآيتان ٩٤ ، ٩٥ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ٢ من سورة يونس .
(٣) الآية ٩١ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٥٢ من سورة الشورى .
(٥) الآية ٧٩ من سورة البقرة .

لقد بشر الله تعالى فى التوراة ببعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، ووصفه فى التوراة ببعض صفته فى القرآن . قال له فى التوراة (يا أيها النبي إنا أرسالناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزاً للأميين . أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ، وليس بفظ ولا غليظ ، ولاصخَّاب فى الأسواق . ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا « لا إله إلا الله » فيفتح أعينا عميا ، وآذاناً صماً وقلوبا غلفاً) ومع ذلك البيان الواضح الصريح ، فإن اليهود أخفوا صفته ﷺ فى التوراة وكتموها . قال تعالى ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾[١].

وقل لهم يا محمد : ﴿ **وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم** ﴾ . ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾[٢] .

إنهم يعرفون هذا كما يعرفون أبناءهم ولكنهم يجادلون فى الحق بعدما تبين لهم . وتأتى الإجابة بعد ذلك فى قوة ووضوح ، فيخاطب الله رسوله قائلا : ﴿ **قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون** ﴾ وهذه إجابة عن سؤال سبق : ﴿ **من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى** ﴾ أى الله هو الذى أنزله . قل هذا ودعهم يلعبون فى خوضهم وعبثهم ، كما يلعب الصبية ويخوضون .

قوله تعالى : ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه** ﴾ والمقصود به القرآن الكريم . ففيه البركة والهدى والشفاء والرحمة والضياء . من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُدِى إلى صراط مستقيم ومن أوصاف هذا الكتاب الكريم أنه جاء مصدقا لما بين يديه من الكتب لأنها تنبع من مشكاة واحدة . وأنزلناه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ولتنذر أم القرى ومن حولها . والمقصود بأم القرى مكة المكرمة ، فإن موقعها على وجه البسيطة يمثل مركز الدائرة ، ومن حولها . فالإنذار شامل والرسالة عامة للعالمين . فقد كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبُعث رسول الله ﷺ لكل أحمر وأسود . ﴿ تبارك الذى نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[٣] ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾[٤] . ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[٥].

﴿ **وأوحى إلىَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾

قوله تعالى : ﴿ والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ هذه شهادة حق من الملك الحق لقوم امتلأت قلوبهم بنور اليقين ورسخت العقيدة فى أفئدتهم بحيث تزول الجبال ولا تزول العقائد . وهكذا الإيمان إذا باشرت بشاشته شغاف القلوب يكاد يجعل المستحيل ممكنا . فبينما يحدثنا الكتاب الكريم عن قوم لجوا فى طغيانهم يعمهون ، فهم فى ريبهم يترددون . وأصروا واستكبروا استكبارا ﴿ **وقالوا ما أنزل الله على بشر من شئ** ﴾ يجد هنا فريقا شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ،

(١) الآية ١٤٦ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٢ من سورة الجمعة .
(٣) الآية ١ من سورة الفرقان .
(٤) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف .
(٥) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

آمنوا بالآخرة ، ومن آمن بالآخرة فقد آمن بالله ربًّا وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا . إذ أن العلم بالآخرة إنما جاء عن طريق الله ورسله وكتبه ومن هنا فإنهم يؤمنون بالكتاب ومن آمن بالكتاب أقام حدوده ، فأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه ، وامتثل أمره واجتنب نهيه ، ومن أول الأوامر بعد التوحيد المحافظة على أداء الصلوات ، إذ هى مفتاح الجنة ، من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهانا ونجاة . ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورا ولا برهانا ولا نجاة ، وكان مع فرعون وهامان وقارون وأبيّ بن خلف .

عاقبة الافتراء على الله

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

المفردات : ﴿ **افترى** ﴾ : اختلق الكذب . ﴿ **غمرات الموت** ﴾ : واحدها غمرة وهى الشدة . غمرات الموت سكراته . ﴿ **باسطوا أيديهم** ﴾ : مادوا أيديهم . ﴿ **الهون** ﴾ : والهوان : الذل الهوْن اللين والرفق . ﴿ **خولناكم** ﴾ : أعطيناكم ومنحناكم ، والخوَل الخدم والحشم ﴿ **بينكم** ﴾ : هو بمعني الصلة أو هو ظرف والاتصال مفهوم من الكلام . ﴿ **ضل** ﴾ : أى غاب

قوله تعالى ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا** ﴾ : الاستفهام هنا إنكارى يفيد النفى أى لا أحد أظلم ممن كذب على الله وقد خاب من افترى . فلا أحد أظلم ممن ادعى لله صاحبة وولداً ، أو أن له شريكا فى ملكه ، فإنه سبحانه قد تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته . واحد فى ذاته لا قسيم له ، واحد فى أفعاله لا شريك له ، واحد فى صفاته لا شبيه له ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فمن أظلم ممن كذب على الله وكذَّب بالصدق إذ جاءه، أليس فى جهنم مثوى للكافرين .

كذلك لا أحد أظلم ممن قال أوحى إلىَّ ولم يوح إليه شيء ، وذلك كمسيلمة الكذاب ومن سار على دربه من دعاة الضلال ، الذين ادَّعوا الرسالة ، وقالوا إن محمدا ختم النبوة ، ولم يختم الرسالة ، وكذبوا ، إذ لا نبوة بلا وحى ولا رسالة بلا نبوة فالنبوة أعم من الرسالة . فإذا كان سيدنا محمد ﷺ قد ختم النبوة

وهى الأعم فإنه يكون قد ختم الرسالة وهى الأخص .. وهؤلاء الكذّابون بأى شيء نزل الوحى عليهم ؟ إن قالوا بغير الإسلام قلنا لهم : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[١]. وإن قالوا : إن الوحى نزل عليهم بشرع الإسلام قلنا لهم : لقد أكمل الله الدين وأتمَّ النعمة ورضى لنا الإسلام دينا أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، كذلك لقد خاب وخسر هؤلاء الذين قالوا : سننزل مثل ما أنزل الله ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾[٢]. إنه الخسران المبين والإفلاس الروحى الشنيع مامصير هؤلاء الكذّابين ؟ قال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذا الظالمون فى غمرات الموت** ﴾ أى شدته وسكراته ﴿ **والملائكة باسطوا أيديهم** ﴾ أى العذاب .

قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق.ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾[٣].

وتقول لهم الملائكة على سبيل التحدى : ﴿ **أخرجوا أنفسكم** ﴾ أى أخرجوها من العذاب وما كان لهم أن يستطيعوا ذلك . إن العذاب يبدأ من الموت . قال تعالى ﴿ **اليوم تجزون عذاب الهون** ﴾ والهون هو الهوان والذل ، ذلك بما كنتم تقولون على الله غير الحق فافتريتم عليه الكذب ، وللكذب صور كثيرة لا تكاد تحصى ، فهو ظلمات بعضها فوق بعض .

﴿ **وكنتم عن آياته تستكبرون** ﴾ والكبر غمط الناس وبطر الحق ، ولا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر وفى هذه الآية الكريمة من الأهوال وقت احتضار الظالمين ما تنخلع له القلوب وتنفطر من هوله الأفئدة ، والناس عند الاحتضار لهم مشاهد ومواقف تختلف باختلاف الإيمان والكفر . وفى هذا المقام وردت أحاديث كثيرة :

– عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، قلنا : يارسول الله كلنا يكره الموت ؟ قال : ليس ذلك كراهية الموت ، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقى الله فأحب الله لقاءه ، وإن الفاجر أو الكافر إذا حضر جاءه ماهو صائر إليه من الشر ، أو ما يلقى من الشر فكره لقاء الله فكره الله لقاءه ﴾ . (رواه الإمام أحمد)

– روى الإمام أحمد بسنده عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفى يده عودينكت به فى الأرض فرفع رأسه فقال : ﴿ **استعيذوا بالله من عذاب القبر** ﴾ مرتينِ أو ثلاثا . ثم قال : ﴿ إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس . معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه

---

(١) الآية ٨٥ من سورة آل عمران . (٢) الآية ٣١ من سورة الأنفال . (٣) الآية ٥٠ من سورة الأنفال .

مد البصر ، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان . قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها وفى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها يعنى على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة فيقول الله : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . قال : فتعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول : ربى الله فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول دينى الإسلام فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله فيقولان له وما علمك ؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادى مناد من السماء أن قد صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة قال . فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذى كنت يسرك . هذا يومك الذى كنت توعد فيقول له : من أنت فوجهك الوجه الذى يأتى بالخير فيقول أنا عملك الصالح . فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى .. قال وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجه معهم المسوح فجلسوا منه مد البصر ، ثم يجىء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب قال : فتفرق فى جسده فينتزعه كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط** ﴾ فيقول الله : اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ : ﴿ **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق** ﴾ فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما دينك ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذى يسوؤك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول ومن أنت فوجهك الوجه يجىء بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة)[1]

(١) أخرجه أبو داود فى السنة (٢٤) . والترمذى فى التفسير (سورة ١١٣ ، ١١٤ : ١) . والإمام أحمد .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة** ﴾ . هذا إخبار منه تعالى لهؤلاء الذين كذبوا على الله وقالوا افتراء عليه إنه قد أوحى إلينا ، أو قالوا سننزل مثل ما أنزل الله ، وذاقوا عذاب الهون وهم فى غمرات المو ت ابتداء ، وسوف يخلدون فى العذاب بما كانوا يقولون على الله غير الحق ،وكانوا عن آياته يستكبرون ، لقد خرجوا من الدنيا ولم يأخذوامنها شيئاً ، ومن الذى سيأخذ من الدنيا إلا عمله ﴿ **وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة** ﴾ أى حفاة عراة غرلاً ﴿ **وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم** ﴾ فلم تأتوا من الدنيا بشيء ، ولم تأخذوا منها فتيلاً ولا نقيرا ولا تطميراً . يقول ابن آدم : مالى مالى يا ابن آدم ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، ولبست فأبليت ، وتصدقت فأمضيت ، وما عدا ذلك فذاهب وتاركه لغيرك كائنا من كان .

لا تركنن إلى القصور الفاخره
واذكر عظامك حين تمسى ناخره
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل
يارب إن العيش عيش الآخره
أزف الرحيل إلى ديار الآخره
فاجعل إلهى خير عمرى آخره
فلئن رحمت لأنت أكرم راحما
وبحار جودك يا إلهى زاخره
آنس مبيتى فى القبور ووحشتى
وارحم عظامى حين تمسى ناخره

قوله تعالى

﴿ **وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون** ﴾ المراد بالشفعاء كل الذين عبدوه من دون الله ، وقالوا إنهم شفعاؤنا عند الله ، وزعموا أن لهؤلاء الشفعاء نصيباً فيهم من العبادة ، فأشركوهم مع الله هؤلاء ، وأولئك من الذين عَبدوا والذين عُبدوا ، سيتقطع الوصل بينهم يوم القيامة ، وتنفصل عُرى المودة بينهم ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾[1] وقال تعالى ﴿ وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون . من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾[2] وفى موضع آخر يقول تعالى ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار ﴾[3]

(١) الآية ٢٥ من سورة العنكبوت .
(٢) الآيات ٩١ – ٩٣ من سورة الشعراء .
(٣) الآيتان ١٩٦ ، ١٩٧ من سورة البقرة .

أبعد هذه القطيعة يقولون إنهم شفعاؤنا عند الله تباركت ربنا وتعاليت يا من قلت فى الحديث القدسى الجليل ﴿ أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشريكه ﴾[1] نعم لا إلٰه إلا الله هو المعبود بحق ولا معبود سواه لقد غاب عنهم الشركاء وتبرأوا منهم فيا إلٰهى تولنا فيمن توليت وقنا واصرف عنا شر ما قضيت

صور من عظمة الخالق

* إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

المفردات : ﴿ **فالق** ﴾ : الفلق والفتق الشق فى الشىء . مع إبانه بعضه عن بعض ﴿ **الحب** ﴾ : الثمر يكون فى الأكام والسنبل ﴿ **النوى** ﴾ : جمع نواة ما تكون فى الثمر والزبيب وما شاكله . ﴿ **تؤفكون** ﴾ : تصرفون ﴿ **سكنا** ﴾ : ما يسكن فيه الإنسان مكانا كالبيت وزمانا كالليل وهو المراد . ﴿ **حسبانا** ﴾ : بالحساب والعدد . ﴿ **يفقهون** ﴾ : الفقه الفهم مع العمق فى التفكير . ﴿ **متراكبا** ﴾ : يتراكم بعضه فوق بعض ﴿ **طلعها** ﴾ : الطلع أول ما يبدو ويظهر من الزهر قبل أن ينشق عنه الغلاف ﴿ **قنوان** ﴾ : هو العذق كالعنقود ﴿ **ينعه** ﴾ : نضجه واكتماله

إن الإلٰه الذى يستحق العبادة والتقديس هو الذى يتصف بهذا ويعمل هذه الأعمال التى يعجز عن أقلها الأوثان والشركاء والأصنام بل والخلق مجتمعين متكتلين سبحانه وتعالى جل جلاله .

إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الزرع كالنجم والشجر من الحب ، والنوى ، والحياة هنا بمعنى

---

(١) أخرجه مسلم فى الزهد (٤٦) . وابن ماجه فى الزهد (١) . والإمام أحمد فى (٣ : ٤٦٦) وفى (٤ : ٢١٥) .

النمو والتغذية ، ولاشك أن الحب والنوى ميت بهذا المعنى ، وبعضهم يتوسع فى الحياة ، ويقول إن الحب والنوى فيها حياة بدليل لو عقما لما أنبتا ولكن اللغة لا تساعدهم ، وكانوا يمثلون قديماً بإخراج الحيوان من النطفة أو البيضة ، ولكن العلم الحديث أثبت أن فى النطفة حياة ، وكذا فى البيضة .

وقيل إن الرأى الصحيح إن الحيوان يخرج بمعنى يتكون من الغذاء وهو ميت ، ويخرج من الحيوان لبنه وفضلاته وهى ميتة ، وكون خلايا الجسم الحى تتكون من غذاء كاللبن والنبات مع عدم الحياة فى الغذاء ، دليل على كمال القدرة ، والله مخرج الميت من الحى فيخرج الحب والنوى من النبات الحى ، ويخرج اللبن والفضلات من الحيوان الحى ، سبحانه وتعالى من قادر حكيم عليم ، فكيف تؤفكون : تصرفون عن طريق الهدى والفلاح ، والله فالق الإصباح ، قد فلق ظلمة الليل وشقها بعمود الصبح عند طلوع الفجر ، وجعل الليل سكنا للحيوان الحى ، يستريح فيه من التعب ، ويسكن جسمه من الألم ، وأعصابه من التفكير والنصب ، والليل وقت سكون وراحة ، والنهار وقت عمل ونشاط ، وجعل الشمس والقمر يجريان بحساب وتقدير وترتيب ونظام محكم لا يختل أبداً لتعلموا بهما عدد السنين والحساب ،

فانظر وفقك الله للخير للآيات الكونية الثلاث : شق الإصباح ، وسكون الليل ، ونظام الشمس والقمر وحسبانهما ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾[1]

وهو الذى جعل لكـم النجوم : والمراد بها ماعدا الشمس والقمر مما لايعلمه إلا هو ، جعلها علامات للسارى ، بها يهتدى للوقت من الليل ، أو من السنة ، ويعرف المسالك والطرق والجهات ، جعلها لتهتدوا بها فى ظلمات الليل والماء ، أو المراد ظلمة الخطأ والضلال

ولما فى عالم السماء من صنع وإحكام وتقدير ونظام ، قد فصل الله الآيات القرآنية ، والآيات الكونية ، وهما يدلان على حكم الله وتمام علمه ولا يستخرج كل هذا ، ولا يهتدى به إلا أهل العلم والنظر ﴿ فاعتبروا يا أولى الإبصار ﴾[2] ولذا اختتمت الآية بقوله تعالى ﴿ **قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون** ﴾ .

هذه آيات الله الكونية فى الأرض والسماء وهاهى ذى آياته فى أنفسنا وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً قد خلقكم من ذكر وأنثى ، وجعلكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، وفى هذا إرشاد إلى التواد والمحبة والتعاطف بين الخلق جميعاً ، وإشارة إلى كمال القدرة ، وتمام العلم والحكمة ، خلقكم من نفس واحدة ، ولكم مستقر فى الأصلاب ومستودع فى الأرحام ، والاستقرار مكث غير محدود بزمن ولا وقت ، وهو أقرب إلى الثبات ، والاستيداع مكث موقوف معرض للرد والرجوع ، ولهذا كان الاستقرار فى الأصلاب ، والاستيداع فى الأرحام ، وبعضهم عكس ، وبعضهم قال غير ذلك ، والله أعلم .

(١) الآية ٤٩ من سورة القمر .

(٢) الآية ٢ من سورة الحشر .

قد فصلنا الآيات ووضحناها لقوم يفقهون ، ويقفون على الأسرار الخفية بذكائهم ، وعمق تفكيرهم ، ولاشك أن النظر فى الخلق والتكوين الإنسانى يحتاج إلى دقة ونظر وفهم .

وهاهى ذى آياته التكوينية فى النبات .

وهو الذى أنزل من السحاب الذى فى السماء ماء ، فجعل منه كل شيء حى ، فأخرج به المولى جل شأنه نبات كل صنف من الأصناف ، فالتربة واحدة ، والماء واحد ، ولكن الشكل والطعم مختلف ، سبحانك يارب ، أنت القوى القادر ﴿ تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ﴾[1] فى الشجرة الواحدة ، ثمر حسن ، وآخر ردىء .

ثمر ناضج ، وثمر نيىء ، ثمر طعمه جميل ، وآخر قبيح ، سبحان الله ، أليس هذا من دلائل الوحدانية والقدرة ، فأخرج الله من النبات شيئاً غضا أخضر ، وهو ما تشعب من أصل النبات ، وذلك كورق النجم وغصن الشجر ، ويخرج من هذا الأخضر حباً جافاً صلبا متراكبا بعضه فوق بعض فى السنبل ، أما الشجر فهذا النخل عنوانه ، يخرج من طلعها قنوان دانية القطوف ، سهلة التناول ، ويخرج الله من النبات الأخضر جنات من أعناب وغيره من الفواكه والثمار كالزيتون والرمان مشتبها فى الشكل والورق والثمر ، وغير مشتبه فى لون الثمر ، وطعمه فمنها الحلو والحامض ، والمز بل منها ماهو كاليوسفى والبرتقال أو كالنارنج ، انظر إلى ثمر ما ذكر نظرة اعتبار وفحص إذا أثمر النبات ، وكيف يصير هذا الثمر من درجة إلى درجة حتى يصل إلى كمال نضجه ، وتمام منفعته ، وكيف يكون الثمر أجوف فارغاً ، ثم تمتلىء بالخير والبركة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون بالله ، أو فيهم الاستعداد لذلك .

الرد على المفترين

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)

المفردات : ﴿ **خرقوا** ﴾ : خلق وخرق واخترق كلها بمعنى واحد ، قال الراغب : الخلق فعل الشيء على تدبير ورفق ﴿ **والخرق** ﴾ : قطع الشيء على سبيل الفساد . ﴿ **بديع** ﴾ : مبدع على غير مثال سابق ومنه البدعة لأنه لا نظير لها ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ : الإدراك اللحاق والوصول إلى الشيء

أشرك الناس بالله شركاء من دونه وأقسم إبليس : لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ، وقد

(١) الآية ٤ من سورة الرعد

عبدوا الملائكة وقالوا : إنها بنات الله ، وأطاعوا الشياطين فى أمور الشرك بالله ، وقال المجوس : إن للخير إلٓهاً وللشر إلٓها هو إبليس ، وذلك قوله تعالى ﴿ **وجعلوا لله شركاء الجن** ﴾ .

والله وحده خلقهم وما يعبدون ، فكيف سواه ، واختلق بعض الناس بجهلهم وحماقتهم بنين لله وبنات ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، فقد قالت اليهود : عزير ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله ، وقال المشركون من العرب : الملائكة بنات الله .

كيف يكون ذلك ؟ والله مبدع السموات والأرض وما فيهن ، فهو الخالق البارئ المصور ، كيف يكون له ولد ؟ ولم تكن له صاحبة ، والولد لابد فيه من تزاوج وتناكح ، وهل يعقل أن تكون له صاحبة تجانسه وتشاكله ، وهو المنزه عن المثيل والشريك : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[1]

وكيف يكون له ولد ؟ وقد أقر الكل بأنه خلق السموات والأرض ، أفيكون فى حاجة إلى ولد وله كل شيء ، سبحانه وتعالى ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خلق كل شيء فاعبدوه وحده فهو الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص، الخالق البارىء ، فاطر السموات والأرض ومبدعهما، وهو على كل شيء قدير ، والله سبحانه لا تدركه الأبصار ، ولا تراه رؤية إحاطة وشمول حتى تعرف كنهه وتحيط به ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه ﴾[2].

والآية الكريمة لا تنفى الرؤية التى وردت بها الأحاديث الصحيحة والله يدرك الأبصار : يراها ويدرسها ويقف على حقيقتها وكنهها ، وإلى هنا لم يعرف أحد حقيقة الضوء ، أو حقيقة البصر ، ولماذا لم تر الأذن ، ولم تسمع العين ؟ ولماذا كان عصب العين ينقل إشارة الرؤية ؟ وعصب السمع ينقل إشارة السمع ؟ ولكن الله وحده هو الذى يدرك الأبصار ويعلمها ، وهو اللطيف بذاته ، الخبير بدقائق خلقه وخفاياهم .

الطريق واضح

قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

المفردات : ﴿ **بصائر** ﴾ : جمع بصيرة وتطلق على العقيدة القلبية وعلى المعرفة الثابتة ، والحجة البينة ، ويقابلها البصر الذى يدرك به الأشياء الحسية . ﴿ **عمى** ﴾ : المراد بالعمى هنا الضلال الدال على

(١) الآية ١١ من سورة الشورى . (٢) الآية ٢٢٥ من سورة البقرة .

الحيرة . ﴿ **حفيظ** ﴾ : رقيب .﴿ **درست** ﴾: أى قرأت وفى الحديث « كان يدارسه القرآن » ومنه الدرس والمدرسة وهى تشير إلى التذليل بكثرة القراءة .

بعدما يبين الله سبحانه وتعالى من الآيات البينات التى نشرها فى الأفاق والأنفس ، وأدحض حجج الذين جعلوا له شركاء ، وأثبت أنه الواحد المتصرف المالك القادر الذى لا تدركه الأبصار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل والنهار ، وهو الواحد القهار . بعد هذا البيان الشافى الكافى الوافى :
قال تعالى ﴿ **قد جاءكم بصائر من ربكم** ﴾ أى قد جاءكم من البراهين والآيات على تلك القضية نتائج لا تختلف ولا تتخلف ، فقال سبحانه ﴿ **فمن أبصر فلنفسه** ﴾ أى من اهتدى إلى النور وسار وراء موكب الهداية الربانية ، وانتفع بشمس العناية الإلٓهية ، فإنما ذلك كله لنفسه ، ومن عمى وضل عن السبيل ، وتنكب الجادّة ، وحاد عن الصراط السوى ، فعلى نفسه ، إذ المسئولية هنا فردية ، كل امرئ بما كسب رهين ، وكل نفس بما كسبت رهينة .
﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾ ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

يلقى الولد أباه يوم القيامة فيقول : يا أبت لقد كنت بك براً ، وإليك محسناً ، وعليك مشفقاً ، فهل أجد عندك حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول له أبوه : يا بنى ليتنى أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكو . وتلقى الأم ولدها فتقول له : يا بنى لقد كان بطنى لك وعاء ، وكان حجرى لك غطاء ، وكان ثديى لك سقاء فهل أجد عندك حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول لها : يا أماه ليتنى أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكين . اقرأوا إن شئتم ﴿ **وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى** ﴾[1] .

فبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن يأتى يوم يفر المرء فيه من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .

غداً توفى النفـــوس ما كسبت	ويحصد الزارعــون ما زرعــوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهـــم	وإن أساءوا فبـئـس ما صنعــوا

قل لهم ذلك يا محمد وأبلغهم إنك لست عليهم بحفيظ ولا برقيب ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾[2] .

(١) الآية ١٨ من سورة فاطر .
(٢) الآيات ١٢٣ - ١٢٧ من سورة طه .

قوله تعالى ﴿ **كذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون** ﴾ أى ومثل ذلك الذى سبق من البيان والتوضيح نصرف الآيات ونتوعها ، من وعد ووعيد ، وخوف ورجاء ، وقصة وعقيدة ، وأحكام وبيان ، لما بعد الموت لنقطع المعاذير ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾[1] وليقولوا لقد قرأت علينا وبلّغتنا إن لم يقولوها بلسان المقال ، فسيقرون بها بلسان الحال ﴿ **ولنبينه لقوم يعلمون** ﴾ والعلم نور ، فمن أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[2] قوله جل شأنه ﴿ اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إلٰه إلا هو وأعرض عن المشركين ﴾ أى التزم بما أنزلناه عليك من الوحى ، واعلم بأن لا إلٰه إلا الله ، وأعرض عن جهلهم وذلك كما قال تعالى : ﴿ يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيماً ، واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾[3] .

لما نزل على النبى ﷺ قوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾[4] سأل الصادق المعصوم ﷺ الأمين جبريل عنها فقال جبريل يا رسول الله لا أدرى حتى أسأل رب العزة فلما سأل رب العزة قال له السلام يقرؤك السلام ويقول لك ﴿ **صل من قطعك وأعـط من حرمك واعف عمـن ظلمـك**﴾ وهذا هو التفسير الرفيع للخلق العظيم الذى تحلى به سيد الأنبياء ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾[5] .

يخاطبنى السفيه بكـل قبـح ... وآبى أن أكـون له مجيبـا
يزيـد سفاهـة وأزيـد حلمـاً ... كعـود زاده الإحـراق طيبـا

ثم يقول سبحانه وتعالى لنبيه ومصطفاه ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل » هو كقوله جل شأنه « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾[6] وقوله ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين.وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾[7] . فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فلست رقيباً عليهم ، ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾[8] **فلا تبخع نفسك عليهم من الأسف ، فلست عليهم بوكيل ، فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر** : ﴿ **كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين** ﴾[9] .

(١) الآية ٤٨ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٩ من سورة الزمر .
(٣) الآيات ١ — ٣ من سورة الأحزاب .
(٤) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف .
(٥) الآية ٤٨ من سورة الأحزاب .
(٦) الآية ١١٨ من سورة هود .
(٧) الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ من سورة يونس .
(٨) الآية ٥٦ من سورة القصص .
(٩) الآية ٢ من سورة الأعراف .

سد الذرائع

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

جاء فى سبب نزول هذه الآية ﴿ **ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله** ﴾ ما روى أن زعماء قريش ذهبوا إلى أبى طالب وقالوا له : أنت كبيرنا وسيدنا وإن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا ، فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ، ولندعه وإلهه ، وقالوا للنبى ﷺ : لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ونشتم من يأمرك فنزلت الآية : حرص الإسلام أشد الحرص على سد أبواب الشر وضرب حولها أسواراً عالية وأقام حولها حصوناً مكينة ومن أبواب الشر التى سد الإسلام الطريق أمامها سب آلهة المشركين فهى وإن كانت لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر كما قال تعالى ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾[(١)] وكما قال جل شأنه ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها ﴾[(٢)] .

ومع كون معبوداتهم كذلك إلا أن الله تعالى نهى المؤمنين عن سب تلك الآلهة حتى يقطع الطريق على هؤلاء المشركين الذين إذا سمعوا ذلك سبوا الله جل جلاله ، متجاوزين حدود الأدب والأخلاق ، لأنهم جاهلون خفاف العقول سفهاء الأحلام ، وكذلك أى مثل ذلك الذى يفعله الجاهلون زينا لكل أمة عملهم ، وجاء التزيين أثراً وجزاء لما فعلوه من المخالفات لأوامر الله ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ﴾[(٣)] ثم إن المصير والمرجع إلى الله فينبئهم بما كانوا يعملون ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون . قوله تعالى ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ﴾ ، ومن قبائح هؤلاء وما استقر فى نفوسهم من الجحود والظلم ، أنهم أقسموا بأغلظ الأيمان وأشدها ، والجهد والاجتهاد بذل الطاقة ، واستفراغ الوسع ،

(١) الآية ١٤ من سورة فاطر . (٢) الآيتان ١٩٤ ، ١٩٥ من سورة الأعراف . (٣) الآية ٨ من سورة فاطر .

أقسموا على ماذا أقسموا لئن جاءتهم آية من الآيات التى يقترحونها ليؤمننَ بها ، وذلك كما قال تعالى ﴿ قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه ﴾[1] فماذا كان الرد ﴿ **قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا** ﴾ وماذا كان الرد : قل إنما الآيات عند الله القادر الحكيم ، مالك الملك ، وملك الملوك ، ثم لماذا يقترحون هذا ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقومٍ يؤمنون .

ولماذا يقولون هذه الحجج الباطلة إنهم لا يقصدون من ورائها إلا اللجاج والعناد ، وهل إذا جاءت يؤمنون فعلا قال تعالى ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾[2] لقد شق القمر بأمر الله فماذا قالوا قالوا إن محمداً سحر أعيننا قال تعالى ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[3] .

وقال جل شأنه ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[4] .

وقال عز من قائل : ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ وهل يغيب عنا ما قاله الأقوام السابقون لأنبيائهم ، أو ما قرأت قوله تعالى حكاية عن فرعون ﴿ يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾[5].

وحكاية عن المسيح مع قومه ﴿ إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾[6] .

كذلك يخاطب الله الجماعة المؤمنة بقوله ﴿ **وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون** ﴾ أى حتى لو جاءتهم الآيات التى اقترحوها فما يزيدهم ذلك إلا طغيانا كبيراً ، لذلك كان جزاؤهم اللائق بهم ، أن يقلب الله أفئدتهم وأبصارهم فلا تستقر قلوبهم على حال،ولا تثبت أبصارهم على حقيقة ، لأنهم لم يؤمنوا به أول مرة ، فالقلوب فى أكنة تمنعها من رؤية الحق ، وعلى الأبصار غشاوة ، تحجب عنها ضياء المعرفة . ﴿ **ونذرهم فى طغيانهم يعمهون** ﴾ أى يتحيرون ويتخبطون فى ظلمهم وضلالهم جزاء وفاقا ﴿ **إنهم كانوا لا يرجون حسابا . وكذبوا بآياتنا كذاباً** ﴾[7] .

نسأل الله تعالى علماً نافعاً ، ورزقاً واسعاً ، وشفاء من كل داء ، ونعوذ بالله من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ونفس لا تشبع ، ودعاء لا يسمع .

(١) الآيات ٩٠ – ٩٣ من سورة الإسراء .
(٢) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة القمر .
(٣) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .
(٤) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .
(٥) الآية ٤٩ من سورة الزخرف .
(٦) الآية ١١٠ من سورة المائدة .
(٧) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة النبأ .